الطبعة 2

محمود عبد الرحيم

قصة الإلحاد

قراءة تاريخية للإلحاد



قصة الإلحاد

قـصـة الإلحـاد

قراءة تاريخية للإلحاد

محمود عبد الرحيم

الطبعة الثانية ، القاهرة 2017م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد المصري

رقم الإيداع : 13930/ 2017

I.S.B.N: 978-977-488-530-3



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان . من ش الشيخ منصور. المرج الغربية ، القاهرة . مصر

هاتف : 01144552557 – 01147633268

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

قصة الإلحاد

قراءة تاريخية للإلحاد

محمود عبد الرحيم



دار اكتب للنشر والتوزيع



ربما ساعدنا إلقاء الضوء على المراحل التاريخية التي مرت بها فكرةٌ ما إلى معرفة كيف تشكَّلت هذه الفكرة مع مرور الزمن عبر عقول كثيرة كي تصل إلى تلك الصورة أو التصوُّر التي هي عليه الآن، وهو ما قد يعيننا على إعادة تقييم الفكرة برُمَّتها مرة أخرى ولكن هذه المرة ببُعد جديد وهو معرفة الظروف والجوانب الفكرية والحياتية بل ربما الدوافع الاجتماعية والنفسية لكل مَن أثَّر وتأثَّر بتلك الفكرة.



مقدمة

شهدت القرون الخمسة الأخيرة من عمر الإنسانية (التي صارت تُعرف إجمالًا بعصر الحداثة وما بعد الحداثة) طفرة غير مسبوقة في جميع المباحث العلمية حيث تضخم حجم المعارف والاكتشافات العلمية والاختراعات بدرجة تغيرت معها نظرة الإنسانية إلى العالم والحياة من حولنا بشكل كُلي، حيث استطاعت بلدان أوروبا الغربية ومن بعدها عدد من مستعمرات أمريكا الشمالية التي صارت تُعرف بعد حرب الاستقلال بالولايات المتحدة الأمريكية أن تحقق تقدمًا عملي وتكنولوجي منقطع النظير.. كان ذلك شيئًا يُشبه الثورة الحضارية التي فاقت كل أساطير الإنسان الأول الحالم بتسيُّد الكون وخيالاته...

اختُرعت الماكينات والآلات فأنتجت في ليلةً ما كان يستغرق أعوامًا كامله لإنتاجه حلَّق الإنسان في الفضاء، وانتقل عبر بساطه السحري من أقصى البسيطة إلى أدناها ووطئ بقدميه القمر حادث من يبعده ملايين الأميال رؤية العين وملء البصر مُستخدمًا سحر التكنولوجيا وتعاويذ العلم قضى على أمراض حيَّرته قرونًا طويلة

كالجدري والسُّل بقرص لا يتعدى حجمه عقلة الأصبع، ولف خلطته أبرع العطارين العارفين بالدواء والطِّب وبفضل جهود عرافين ومنجمين بارعين اطلع على تكوين أصغر ذرة وأكبر مجرة، وأراه كهنة المعامل ورهبانها أدق تفاصيل الخلية وحمضها النووي... طائرات وصواريخ نفاثة، وأقمار صناعية، وسيارات، وتلفاز، وهواتف محمولة،وفاكس، وكمبيوتر، وإنترنت، وسيارات، وسفن عملاقة، وغواصات، قنبلة نووية، وناطحات سحاب... العالم الآن خادم مُطيع للسعادة البشرية أكثر من أي وقت مضى؛ لذا فلا حدود على الأحلام.. سنُسافر للعيش على كواكب أخرى صالحة للحياة، سنبني على الأرض جنة، سنقضي على الأمراض كلها، فشباب دائم وصحة دائمة ومن يدري فربما استطعنا أن نُجابه الموت ذاته، فيُكتب لأجيال قادمة الخلود... لم تنتج تلك النهضة سلعًا وخدمات فقط، ولكن أنتجت ثقافة وأنماطًا فكرية وفلسفية نابعة بالكلية من تجربتها الحضارية المادية.

ومن السهل تفهُّم ما لتلك التجربة الغريبة من أثر على الوعي الإنساني ككل وسبب الانبهار بها والنقل عنها، وتلقف كل ما تفرزه تلك الأمة من إنتاج ثقافي وفكري بدون تحليل أو تفسير

على الأقل للظروف والملابسات التاريخية التي نشأ في ظِلِّها هذا المنتج الفكري أو عبر عنها أو كان ردة فعل لها وبدون إدراك للبُعد النهائي لتلك الأفكار التي ننقلها ونتبناها، فذلك كله مرجعه ما أحدثته التجربة الغريبة من إنجاز حضاري وعلمي غير مشهود من قبل لأي أمة أخرى، فعبر التاريخ طالما كانت الأمم المتأخرة مقلدة للأمة المتغلبة المتحضرة. وفكرة التبادُل الثقافي والنقل عن الآخر (خاصة فيما له فيه السبق) أمر لا ضير فيه ما دمنا نعي أن ما تنتجه أي أمة من (ثقافة وأنماط فكرية) إنما يعكس منظورها وتحيزها وقبل كل ذلك تجربتها التاريخية والحضارية التي ربما لا تتفق بالكلية مع رؤى وتجارب الإنسانية جمعاء. وهو ما يوجب على تلك الأمم المُقلِّدَة أن تنتقي من تلك الثقافة ما يتناسب مع موروثها الثقافي المختلف وواقعها المغاير.

وفي حين اكتسى ما صار يعرف بعصر الحداثة بثوب مادي يعول كثيرًا على قدرة العقل والعلم التجريبي بدا كثير من فرسان هذا العصر عازمين على إلزام العقل الإنساني بمراجعة أفكار عصية على الاكتساء بذات الثوب كـــ(الأخلاق، الدين، الله، الجمال).

تلك القيم والأفكار التي طالما رأى الإنسان أن إدراكها وإن كان يحتاج إلى تدبُّر وبحث ودرس، فإن ذلك لا يُغني عن استخدام ملكات أخرى لا تقل أهمية كالضمير والحدس والشعور.

على كلٍّ تغيرت النظرة إلى مثل تلك القيم والأفكار وعلى وجه الخصوص (الفكرة الإلهية) التي أدى إخضاعها إلى العلم التجريبي والعقل دون التعويل على أي شيء آخر بخلافهما إلى تغير النظرة والتصوُّر للفكرة الإلهية بشكل كلي (في الثقافة الغريبة ومن نقل عنها). حيث مرَّت الفكرة بالعديد من المراحل التي ظلَّت تتغير خلالها بشكل تدريجي.. فمن إلهٍ مُنزَّهٍ عن كل النقائص كُلي الحضور تعجز الكلمات عن وصفه، فهو أعظم من أن تستطيع قدرة العقل الإنساني المحدودة إدراكه إلى مجرد كائن مُبدعٍ عظيمٍ ومهندس بارع خلق الكون وأوجد له قوانين تسيره إلهًا لا يتعدى كونه مجرد فرضية علمية أو تفسير نهائي للكون، فبعد أن كان إلهًا محيطًا بكل حركةٍ وسكنة في هذا الوجود، ومدبِّر لها أصبح مجرد تفسير لما يعجز العقل والعلم عن تفسيره، أصبح إلهًا لسدِّ الفجوات العلمية، وما يلبث العلم أن يكشف ذلك الغموض أو الاستشكال الذي أسند تفسيره إلى الإله حتى يستغني الإنسان عن

الله كفرضية علمية ليحل محلها قانون كذا أو نظرية كذا... وبعد أن خلعت عنه حلة القداسة ولم تعد هناك حاجة علمية لوجوده، تغيَّرت صورة هذا الإله، فلم يعد يتعدى كونه رمزًا للذكاء الكوني الذي نلمسه في الطبيعة من حولنا إلهًا ماديًّا لا ينفصل عن الطبيعة حيث ينبع كلٌّ منهما عن الآخر، فهو يتجلى في حركة أكبر مجره وهو الطاقة المسيرة للخلية والذرة لا يحتاج إلى عباده ولا يُجدي معه الدعاء.

ومع مرور الوقت أصبحت فكرة وجوده أو عدم وجوده غير مهمة على الإطلاق، فهو إله ليس له أي دور في حياة الناس... إله يدعو إلى الإلحاد أكثر ما يدعو إلى الإيمان، ثم يلي ذلك أن يكتشف الإنسان أن الإله الحقيقي هو ذاته، فالإله ما هو إلا إسقاط لتصور البشر عن أنفسهم حين تتسامى وتبلغ أعلى درجات الكمال والقوة (السوبر مان) ، ثم يعي الإنسان في مرحلة نضجه الأكثر كمالًا كيف يحيى في هذا العالم مُستغنيًا عن أي معنى أو قيمةٍ أو هدف لهذه الغربة الوجودية التي يحيى فيها منفردًا بشكل عبثي؛ فالإنسان ما أوجد فكرة هذا الإله بالأساس إلا محاولة منه لإيجاد هدف أو معنى لحياته في هذه الغربة الوجودية العبثية.

ولقد عمدت في هذا الكتاب إلى تناول تلك المراحل التي مرت بها (الفكرة الإلهية) خلال القرون الأخيرة قرون (عصر النهضة).

والتعرض لموضوع محيط كهذا بكل ما فيه من تشعُّب وتداخُل مع مباحث وموضوعات لا حصر لها ليقتضي الإيجاز قدر المستطاع بدون إخلال وهو ما عمدت إليه من خلال إلقاء الضوء على أهم المحطات الفكرية والأحداث السياسية والاجتماعية والدينية ذات التأثير المباشر على الفكرة محل البحث.

صعود اللاهوت



في نهاية القرن الحادي عشر كانت أوروبا قد بدأت تستفيق من عصور الظلام التي غرقت فيها منذ سقوط روما في القرن الخامس الميلادي. حيث كانت تعيش في أقصى حالات الانحطاط الفكري والحضاري، كما كانت الأوضاع الاقتصادية مزرية للغاية.

- كان عامة الناس يعيشون في حالة من الجهل والفقر المُدقع.. حتى أنهم كانوا يجهلون المبادئ الأولى للمسيحية.

- بدأ رجال الدين في نشر تعاليم المسيحية من جديد بين الناس. بُنيت مئات الكنائس في أنحاء أوروبا حتى في المدن الصغيرة النائية والقُرى كما بدؤوا يكثفون من رحلات الحج إلى الأراضي المقدسة..

شهدت العقود الأخيرة من القرن الحادي عشر والأولى من القرن الثاني عشر التزامًا لافتًا في أوروبا، وأخذ الدين المسيحي بها طابعًا غربيًا خاصًا.

- كان جيران أوروبا من البيزنطيين والمسلمين قد قاموا بنهضة علمية وثقافية هائلة قبل ذلك بعدة قرون، حيث كانت مباحثهم في علم الفلك والكيمياء والطب والرياضيات قد بلغت ذروتها، كما كانت اكتشافاتهم العلمية مثيرة للإعجاب.

- وفي الوقت ذاته كان المسلمون قد حققوا تقدُّمًا هائلًا في دراسة الفلسفة الإغريقية وربطوها بمفاهيم عقيدتهم وحقائقها مكونين فلسفة خاصة بهم من خلال سلسلة كبيرة من الفلاسفة المسلمين أمثال (يعقوب بن إسحاق الكندي، محمد بن زكريا الرازي، أبي نصر الفارابي، أبي علي بن سينا، أبي يعقوب السجستاني، أبي حامد الغزالي) والكثيرين غيرهم.

- حتى رجال الدين اليهود الذين عاشوا في بلاد المسلمين قد تأثروا بهم، وأخذوا عنهم تراجمهم للعلوم الفلسفية. ظهرت محاولات قوية من بعضهم لإعمال العقل في الدين ومناقشة الأفكار العقائدية المتعلقة بالله وتأصيلها.

- كان من أبرز هؤلاء الفيلسوف الشهير ابن ميمون الذي يعتبره كثيرون مُجدِّد العقيدة اليهودية وأعظم علماء التلمود في العصور الوسطى وحتى عناصر الإيمان الثلاثة عشر التي حددها تُعتبر إلى الآن هي أُسس العقيدة اليهودية المُعتبرة لدى أغلب طوائف الديانة.

الفلسفة تعرف طريق اللاهوت:

في تلك الأثناء بدأ الرهبان الأوروبيون التعرف إلى النهضة الفكرية لجيرانهم المسلمين والبيزنطيين.

- توافد طلبة العلم من الأوروبيين إلى بلاد الأندلس للدراسة على يد العلماء المسلمين بقرطبة وطليطلة.

كانت عودة هؤلاء الدارسين إلى بلادهم نقطه تحول في تاريخ أوروبا ودينها المسيحي، وإحقاقًا للحق فإن الفلسفة بقدر ما نفعت فإنها كانت دائمًا مأزقًا يعترض طريق الأديان، وسواء نجت منه أي عقيدة أو لم تنجُ فلا بد أن نؤكد أن أي عقيدة مرت بمحاولة إقحام الفكر الفلسفي فيها أوَ بلفظ آخر إمرار الإيمان بالحقائق العقائدية والغيبية لأي دين على العقل، كانت تلك هي المرحلة الأخطر على مصير تلك العقيدة.

- على كلٍّ بدأ الأوروبيون يدركون الدور المهم للعقل الذي من الممكن أن يؤديه في خدمة الدين.

- في البداية اقتصر الأمر على محاولات قليلة من بعض الرهبان لفهم تعاليم الدين وتفسير حقائقه بطريقة تتسق مع العقل، بينما ظلت الأغلبية منهم متحفظين على فكرة إعمال العقل في الدين من الأساس.

- ورغم أن المتحفزين للعقل كانوا على قناعة تامة أنه لا يمكن أن يتعدى استخدامه أكثر من التأمل والتفكر وفهم الكتاب المقدس وتعاليم الدين وتأدية الصلوات بشكل عقلاني، ولم يتطرق أحد منهم مطلقًا إلى الحديث عن إخضاع الفكرة الإلهية (الله) لتقييم العقل البشري وفهمه، إلا أن الأمر ظلّ محل رفض معظم كنائس أوروبا.

***

أنسلم.. قائد دعاة العقلانية:

- كان من أشهر الرهبان دعوةً إلى هذه الروحانية العقلانية الراهب أنسلم الذي كان رئيسًا لأساقفة كنتربري بإنجلترا في نهاية القرن الحادي عشر، كان أنسلم ومدرسته الفكرية يرون أنه بالتأمل العقلي في الصلوات وقراءة الكتاب المقدس بطريقة متأنية يستطيع الإنسان العادي إدراك الحكمة الإلهية وفهم الحقيقة النهائية للإيمان.

رأوا أن الإيمان والتعمُّق في معاني الصلوات والكتاب المقدس هي السبيل الوحيد للفهم، فبعد أن كان المبدأ الشائع (إنني أعتقد لأنني لا أستطيع أن أفهم) أصبح (إنني أعتقد لكي أفهم وأعقل) فالإيمان هو الذي يفتح الطريق أمام أعيننا، ويكشف لنا الحقائق التي لا يستطيع العقل إدراكها.

رأى أنسلم أننا لا يمكن لنا بقدراتنا العقلية وحواسنا المحدودة أن ندرك ما هو الله، وكيف أنه موجود، ولكن ليس بالمعنى اللفظي لتلك الكلمة، فالله (هو ذلك الشيء الذي لا يمكن التفكير في شيء آخر أكثر كمالًا منه).

في إحدى كتاباته يتخيل أنسلم نفسه يحاور شخصًا أبله (ملحدًا) غير مقتنع بوجود الله في تلك المناظرة يستخدم أنسلم فكرتين أساسيتين اعتبرهما مسلمتين يمكنهما دحض أي شكوك حول الله بكل سهولة الأولى: إن مجرد تصور العقل لوجود إله كامل دليل على وجوده في خارج العقل، لأنه إذا لم يكن موجودًا لما كان كاملًا، فالذات التي لا يكون لها وجود لا تكون كاملة، والثانية: هي أن القول بوجود الله خير من القول بعدم وجوده. وبالرغم من أن لاهوتيين معاصرين ولاحقين لأنسلم قد وجهوا انتقادات قاسية وحادة لبرهانه.

هذا ورأوا أنه سطحي للغاية ك-(الراهب غونيلون) الذي رأى عدم سلامة النتيجة التي وصل لها أنسلم من خلال برهانه، حيث إن تصور عقولنا مثلًا لوجود (جزيرة كاملة الجمال بدرجة لا نظير لها لا يستوجب وجودها في الحقيقة).

لكن أنسلم لم يحاول كما يعتقد البعض أن يبرهن على وجود الله بالعقل، لكنه كان فقط يحاول أن يشرك عقله مع قلبه في الإيمان بالله

عن طريق التدبر والتفكُّر، فأي كلمه نقولها عن الله هي أقل بكثير جدًّا من حقيقته.

لم يبتعد أنسلم بفكره عن أغلب أبناء جيله من اللاهوتيين الذين طالما أكدوا على أنهم لا يوافقون الفلسفة الإغريقية مطلقًا في محاولة إخضاع (الإله) للبرهان العقلي، وكانوا مقرين بعدم قدرة العقل البشري المحدود على فهم الفكرة الإلهية؛ لأن الله أكثر سُموًّا من أي شيء يمكن للعقل البشري الإحاطة به.

***

طريق اللا عودة:

- لكن الوضع لم يستمر هكذا طويلًا، ففي مطلع القرن الثالث عشر كانت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية قد أخذت نطاقًا واسعًا وبشكل غير مسبوق ترجمت مجموعة عريضة من الأعمال العلمية والفلسفية المتنوعة.

- أشعل هذا الفيض من المعرفة الجديدة عقول الأوروبيين، ولم يعد المهتمون بتلك المعرفة مجرد قلة، بل أصبح ذلك اتجاهًا سائدًا يضمُّ أكبر القادة الدينيين والمفكرين، حيث أقدمَ العديد من اللاهوتيين على دراسة الفلسفة الإغريقية وخاصة أفكار أرسطو.

توماس الأكويني.. أرسطو الكاثوليكية:

كان من أبرز هؤلاء اللاهوتيين راهب دومينيكاني يُدعى توماس الأكويني.. ترجع أهمية هذا الرجل إلى التحوُّل الهائل الذي شهده اللاهوت على يده.... استغرق توماس في دراسة أفكار أرسطو أكثر من أي شخص آخر في عصره.

كان مُقرًّا أننا حينما نناقش فكرة الله فإننا نناقش ما هو خارج متناول العقل، فنحن نتحدَّث عمَّا لا يمكن للجمل والكلمات أن تعبر عنه، بل على العكس فإن دراستنا هذه تكشف عجز الكلمات والمفاهيم عن التعبير عمَّا هو المقصود بالله على وجه التحديد. لكنه رأى أنه من الممكن الاستدلال على الله من خلال تتبع آثاره.. فطالما أن الله هو خالق الكون إذن فهذا الكون بإمكانه إخبارنا شيئا

عن خالقه.

وضع توماس خمسة فروض، رأى أن إثباتها كافٍ لأي عقل للإقرار بوجود الله: ـــ في الفرضية الأولى والثانية يستدل توماس بفكرة الإله عند أرسطو الذي أطلقَ عليه المُحرك الأول أو العلة الأولى. كان أرسطو يرى أن لكل نتيجة سببًا لذلك، فما دام كل شيء موجودًا حولنا يتغير ويتحرك فلا بد من وجود سبب محرك له، وإذا تتبعنا تسلسل الأسباب، فإنه لا بد أن ينتهي بنا عند محرِك أو مسبب أو مُوجد أول لكل شيء في هذا الكون مسبب لا يحتاج لغيره كي يكون موجودًا ولا يتحرك أو يتغير وهو ما يُسميه الناس الله.

أما في الفرض الثالث: فهو مأخوذ من فكرة بن سيناء عن (الكينونة الضرورية) أي إن هذا الإله لا بد أن يكون موجودًا فهو ضرورة بديهية لفهم كل شيء يتغير في الكون، وإيجاد تفسير له (إن هذا الإله إن لم يكن موجودًا، فلا بد أن نوجده).

أما الفرض الرابع فهو (فكره أخلاقية عند أرسطو): فما دام هناك أشخاص أفضل من أشخاص وأكثر سُموًّا منهم.. وهناك أشياء أفضل من أشياء..

فإن هذا يفترض وجود (كمال) غير مرئي يسمو على جميع ما نراه، يسعى الجميع إلى تقليده ومحاكاته والوصول إليه.

أما الفرض الأخير: فهو اعتقاد أرسطو أن لكل شيء في الكون (غاية نهاية) يسعى إلى تحقيقها من خلال القوانين الطبيعية كي يصل إلى هدفه وغايته في النهاية؛ لذا فإن كل هذه الدقة والنظامية لا يمكن أن توجد مصادفةً بلا منظم ذكي (الله).

***

الصمت.. لغة الإيمان:

– لكن توماس ما إن انتهى من البرهنة على وجود الله حتى فاجأنا بأننا على الرغم من إثباتنا أن الله موجود فإننا ليس لدينا فكرة عمَّا يعنيه لفظ (موجود)، وما الدلالة الفعلية للكلمة. فليس هناك إجابة يستطيع العقل الوصول إليها؛ لأن ذلك يفوق قدراته؛ لذا يجب علينا أن نلتزم الصمت، فنحن لا نستطيع معرفة ما هو جوهر هذا الإله... فمثلًا عندما نقول:

الله خير، أهو الخير ذاته أم أنه خالق الخير؟ الله رحيم، أهو الرحمة ذاتها أم أنه خالق الرحمة؟

كيف نفهم أن الله هو جوهر الكمال؟ لذا فقد رأى في النهاية أن الكلمات التي نصف بها

الله هي كلمات قياسية لا تعبر عن حقيقة هذا الإله.

وهكذا استطاع توماس الأكويني أن يجعل من الصمت توجهًا فكريًّا في فهم الله.

التفَّ حول أفكاره تلك مئات اللاهوتيين والمرشدين الروحيين، عمد جميعهم إلى نشرِ أفكاره تلك بأساليب مُختلفة وطرق مُتعددة.

***

بونافنتورا.. معنى الوجود الإلهي:

– كان بونافنتورا الرئيس العام للرُّهبان الفرنسيسكان واحدًا من هؤلاء الذين عبروا عن هذه الفلسفة الجديدة حول طبيعة الإله.

– في كتابه (رحلة العقل إلى الله) الذي يعتبر من أعظم أعماله، أوضح أن العالم أجمع هو رمز حي يدل على عظمة خالقه رأى أن المناهج الجامعية والعلوم الطبيعية، الفنون الجميلة والتطبيقية، المنطق، الأخلاق، الفلسفة الطبيعية.. جميع العلوم والفنون.. كل هذا يساعد القلب والعقل على الوصول إلى خالقه، فالإنسان من خلال دراسته لهذا العالم الخارجي سيجد نفسه في النهاية مأخوذًا دون أن يشعر إلى أعماق عالم الروحانية حيث سيكتشف ذلك الإله بمفهوم يحطم كل مدركاته السابقة عنه وستنقلب أساليب تفكيرنا رأسًا على عقب، سيبدو وصف الله شيئًا لا يمكن للعقل أن يتصوره..

الشيء ونقيضه.. النفي والإثبات.. سنعرف عندها كيف أنه (الأول والآخر، الأزلي والحاضر بقوة، الرحيم والجبار) ستكون تلك المتناقضات الواضحة متسقة جنبًا إلى جنب حينما تتحدث عن هذا الإله.

***

لم يعد ممكنًا تنحية العقل جانبًا:

- إلا أن هذا القدر من الإعمال العقلي في دراسة (فكرة الإله) الذي قام به توماس وجيله قد فتح طريق اللا عودة على اللاهوت في استخدام العقل.... وبدأ جيل جديد في الظهور بدا أنه أكثر اقتناعًا بأهمية العقل، حيث أصبح من الصعب تنحيته مرة أخرى عند الحديث عن الله.

***

جون دونس سكوت..الألفاظ لا تحتمل أكثر من معنى:

- تتمثل نقلة هذا الجيل في شخص جون دونس سكوت.. كان فليسوفًا فرانسيسكيًّا، وكانت له شعبية كبيرة، كان يلقي محاضراته في جامعة أكسفورد التي كانت تكتظُّ بالمستمعين.

- أدان سكوت أفكار توماس ونقدها بشدة، وعلّل ذلك بأن تبني توجه توماس هذا جعل من المستحيل قول شيء ذي معنى عن الله وجعله غامضًا مجهولًا للبشر.

- أقرَّ عدة أفكار مناقضة تمامًا لما جاء به توماس، أهمها:

- أن العقل بإمكانه البرهان على أي شيء، وأنه من خلال القدرات العقلية العادية للإنسان يستطيع التوصل لفهم كافٍ عن الله.

- كما رأى أن الألفاظ أحادية المعنى، فعندما نقول إن (الله موجود) فإن لفظ موجود هو ذاته ما نعنيه عندما نقول (فلان موجود)، فالألفاظ التي نستخدمها عندما نتحدث عن الله تحمل نفس المعاني عندما نستخدمها في الحديث عن الإنسان والحيوان والجماد.

- لذلك فكل ما علينا فقط هو أن ننقي المفردات التي نصف بها الله من كل أوجه الشوائب والقصور، وأن نختار الألفاظ المناسبة.

***

الله.. ذلك الكائن العظيم:

- جعلت هذه الأفكار من الله مجرد كائن آخر، لكنه أكثر عظمة وسُموًّا.. بدا كأنه جزء من النظام الكوني، وهو ما أدى إلى حدوث صدع شديد بين اللاهوت والروحانية حيث أصبح من الصعب على

العامة تقبل مثل هذا التناقض بين كون الله مجرد كائن وبين كونه كلي القدرة والسمو والكمال. استشعر الكثير من رجال الدين الرافضين لتلك العقلانية خطورة ما قد تؤول إليه الأمور إذا ما استمر حيز تلك العقلانية المفرطة المستندة على العلوم الفلسفية في الاتساع داخل اللاهوت، لذا ففي عام 1277 أدانت هيئة الكهنوت الكاثوليكية الفرنسية أفكار توماس الأكويني وآراءه المبنية على فلسفة أرسطو، وفي الحقيقة لم تكن تلك الإدانة موجهة إلى أفكار توماس بالذات بل كانت موجهة بالأساس إلى فكرة إعمال العقل وعلوم الفلسفة بشكل عام، وبالأخص أفكار أرسطو التي حدت من قدرة الله الكلية وجعلت منه مجرد كائن.

***

قياس القدرة الإلهية:

– لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد حيث بدأ بعض الباحثين واللاهوتيين انطلاقًا من هذا الفهم لقدرة الله (على أنها شكل أكثر فاعلية من القدرة التي نعرفها للبشر وباقي المخلوقات) بدؤوا في دراسة جميع الإنجازات التي بإمكان الله أن يُحققّها.

ـ هل يستطيع الله أن يخلق عوالم أخرى أفضل؟ وكيف؟

– حاولوا أن يقيسوا بدقة درجة اختلاف الله عن مخلوقاته؟

كيف سيُخلي الله الكون من المادة في نهاية الحياة؟ وهل سيكون مكان هذه المادة فراغًا كونيًا أم ماذا؟ حتى إنهم حاولوا أن يحسبوا عدد الملائكة الذين يمكنهم الجلوس على طرف إبرة!

- وهكذا غربت شمس القرن الثالث عشر على ذلك الصدع الكبير بين اللاهوت والروحانية... وملأت تلك الفرضيات المبهمة عقول العامة... وبدأ يظهر جليًا الأثر الذي أحدثه تمازُج الدين مع الفلسفة وهو ما جعل أغلب الرهبان من القرن الرابع عشر وحتى القرن السادس عشر يتجاهلون اللاهوت تمامًا أمثال (يوهان تولر1300- 1361) (هنري سوسو 1295 –1366) (جان فان رويزبروك 1293- 1381) (جوليان من نوريتش 1343- 1416) (تريزا الافيليه ١٥١٥-١٥٨٢) (يوحنا الصليبي ١٥٤٢-- ١٥٩١) فهؤلاء جميعًا وغيرهم لم تكن لهم أي إضافات تذكر للاهوت.

- ترك الرهبان العوام في هذا التشوش حول فكرة الإله تملأ عقولهم مئات الأسئلة والاستفسارات التي لم يجدوا لها ردًا شافيًا وغرق الرهبان في عزلتهم وخلوتهم، حيث ازدهر في هذه القرون الثلاثة نوعًا من صوفية العاطفية تجاه الله.. أصبحوا يؤدون صلواتهم بشكل منفرد بغرض التأمل كما بدؤوا يقرؤون الكتاب المقدس بصورة انفعالية للغاية.

حلت تلك صوفية الروحانية محل اللاهوت العقلاني.

- ورغم محاولة بعض الرهبان الخروج من ذلك السياق وانتقادهم لهذه الصوفية المفرطة التي عزلت رجال الدين عن خدمة الناس حيث حاولوا أن يوضحوا لهم أن الوصول لحالةٍ من النشوة والشعور بالروحانية الجامحة والعاطفة الجياشة نحو الله لا يمكن أن تكون هي فقط الهدف والمسعى الوحيد للدين.

- لم يكن هؤلاء يعلمون أن انقطاعهم عن الناس في هذه الفترة سيكون له عميق الأثر في إثارة الحيرة والقلق في نفوس الكثيرين حول تصوُّر (الفكرة الإلهية) التي أصبحت مُشوَّشة ومضطربة، وأنها ستؤدي في المستقبل القريب إلى نتائج غاية في الخطورة ستؤثر على مصير الديانة بأكملها في أوروبا.

عصر الحداثة



– كثيرًا ما يقال إن التاريخ الحديث أو ما يُطلِق عليه آخرون (عصر الحداثة) من الممكن التأريخ له بداية من عام ١٤٦٩م، وهو تاريخ الزواج الشهير للملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا وشروعهما في توحيد مملكتيهما أرجون وقاشتالة الإيبرية والقضاء على ما تبقى من معاقل المسلمين وإخضاعها لسيطرتهم لتكوين مملكة مركزية على الأراضي الإسبانية كافةً.

***

الكاثوليكية...أداه لتوحيد البلاد أيديولوجيًّا:

في ٢ يناير ١٤٩٢ استولت جيوش فرديناند وإيزابيلا على غرناطة آخر ممالك المسلمين، ولم يمضِ وقت طويل حتى وقّع الملكان مرسومهما الشهير الذي صار يعرف بـــ(مرسوم الطرد) الذي على

أثره أرغم اليهود ومن بعدهم المسلمين على الاختيار بين التعميد (اعتناق الكاثوليكية) أو الطرد خارج البلاد.

– عَبَرَ أكثر مِن ثمانين ألف يهوديٍّ رفضوا التعميد إلى بلاد البرتغال بينما رحل المسلمون وبرفقتهم خمسون ألفًا آخرون من اليهود إلى الدولة العثمانية.

***

البقاء.. مقامرة خاسرة:

– أما المسلمون واليهود الذين آثروا البقاء في ديارهم ظنًّا منهم أنهم سينعمون بالاستقرار مرة أخرى بمجرد التظاهُر بالتحول للمسيحية مع إبقائهم على إيمانهم في الخفاء حتى تهدأ الأوضاع فقد كان رهانهم خاطئًا حيث إن فرض التطابق الأيديولوجي عن طريق توحيد عقيدة الشعب كان خيارًا لا بديل عنه للملكين لضمان وحدة مملكتيهما الكبرى واستقرارهما وخضوعهما لسيطرتهما المركزية المباشرة بل إن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فمع مرور الوقت لم تعد سياسة الملكين ترفض فقط وجود تكتلات دينية ذات زعامة خاصة وحسب لكن الأمر امتدَّ حتى أصبح الملكان لا يقبلان حتى بوجود أيٍّ مؤسسات أو نقابات للحرفيين أو حتى تعاونيات..لا مجال ولا مساحة ليعلو أي صوت معارض هنا أو هناك... ومن ثم أُنشئت محاكم التفتيش.

محاكم التفتيش.. درع المركزية:

- كان أعضاء محاكم التفتيش يتصيدون أي شخصٍ تحوم حوله أقل الشبهات في أنه يمتلك وجهة نظر مخالفة لسياسة الدولة ليتم إجباره على التخلي عن تلك الهرطقة.

- لكن في الحقيقة كان غالبية ضحايا هذه المحاكم هم المسلمين واليهود الذين وُجِّهت إليهم تهمة العودة إلى ديانتهم الأصلية، فإذا سقط أحد أولئك الخوارج الذين لا يزالون يُقيمون طقوسهم القديمة سرًّا فليس أمامه إلا أمران، إما أن يُبرهن على أنه قد دخل في المسيحية بشكل جديٍّ، وأنه ترك دينه الأصلي بالفعل، وإما التنكيل والتعذيب الشديد حتى الموت.

- لذلك فقد كان لهؤلاء المتحولين دور كبير في الشكوك التي شاعت حول العقيدة المسيحية فيما بعد.. فهم لم يكونوا يومًا مقتنعين بهذه الديانة.

***

اليهود الخنزيريين:

كان اليهود الذين فروا إلى البرتغال (وهم من صاروا يعرفون باليهود الخنزيريين كما أطلقت عليهم محاكم التفتيش على سبيل التهكُّم والاحتقار) أكثر إصرارا وتمسكًا بدينهم. عند وصولهم رحَّب بهم الملك چو الثاني وأحسنَ إليهم.

– لكن عندما خلفه الملك مانويل على عرش البلاد والذي كان صهرًا لفرديناند وإيزابيلا حاول صهراه أن يستميلاه لكي يتبنى نفس سياستيهما في إجبار اليهود على التعميد، لكن مانويل أمهل اليهود خمسين عامًا للتحول خلالها طوعًا إلى المسيحية وإلا ستبدأ محاكم التفتيش عملها.

***

إسبانيا نموذج التقدم:

أصبحت الإمبراطورية الإسبانية أول إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس، فمع الاكتشافات التي قام بها البحارة الإسبان وعلى رأسهم كريستوفر كولومبوس توسعت المملكة واستولت على ثروات ما يقرب من قارتين من معادن نفيسة وحاصلات زراعية جديدة، وتوابل وكماليات لم تشهد أوروبا مثلها وهو ما جعل من إسبانيا سيدة القاره

العجوز حيث عاشت عصرًا ذهبيًّا لا مثيل له في أي دولة في العالم، وبات النموذج الإسباني الأكثر تقدُّمًا يُداعب أحلام الملوك...

وبالفعل خلال عقود قليلة بدأت فكرة تكوين قوميات كبرى تضرب بأصدائها في آفاق أوروبا، وأصبح الاستعمار خيارًا لا بديل له لكل من يتطلع لمحاكاة النموذج الإسباني... وهكذا لم تعد إسبانيا هي النموذج الأوحد للدولة القومية الحديثة وأصبح هناك العديد من الدول التي تزاحمها في درب الحداثة.

***

تقويض سلطان الكنيسة:

- على الرغم من ان الدين قد كان احد اهم و أسهل الوسائل التي لجأ إليها الملوك لتحقيق مكاسب سياسية تخدم عروشهم وتقوي نفوذهم وسلطانهم الروحي على شعوبهم كفرضهم التطابق الأيديولوجي وتوحيد سكان ممالكهم في قوميات موحدة..

كما استخدموه ذريعة للانفصال النهائي عن الإمبراطورية الرومانية من خلال استغلالهم للخلاف الدائر بين الكنيسة والإصلاحيين حيث حاولوا إظهار صراعهم مع روما على أنه صراع عقائدي

فأشعلوا حربًا من أكثر حروب التاريخ دمويةً، وهي ما صارت تعرف بـــ(حرب الثلاثين عامًا).

إلا أنهم كانوا يسعون إلى تقليص دور الكنيسة وإضعاف قوتها ونفوذها حتى يستطيعوا إحكام قبضتهم بشكل منفرد على ممالكهم حتى لا تنازعهم أو تزاحمهم الكنيسة سلطانهم كسابق عهدها.

- لذا فقد كان أغلب الملوك داعمين بشدة لكل الحركات الفكرية التحررية التي ظهرت فيما بعد خاصة العلمانية التي كانت ترى ضرورة حصر الدين في نطاق خاص به.. وهو ما نجح فيه كثير من الملوك أمثال هنري السابع في إنجلترا وفرانسيس الأول في فرنسا وعدد من الأمراء الألمان، حيث استطاعوا إخضاع الكنيسة لسياستهم الخاصة.

***

رأس المال يحل محل الكنيسة:

كانت تلك الطفرة الاقتصادية التي شهدتها أوروبا في طريقها لتنشئ نوعًا جديدًا من السلطة ألا وهي سلطة رأس المال لتحلّ محل الكنيسة التي كانت في طريقها للانزواء نهائيًا.

حيث تصاعد دور البنوك وشركات الأسهم والسندات والبورصات التي لم يكن للكنيسة أي سُلطة عليها كما ازداد دعم الملوك لهذه القوة الجديدة على حساب الكنيسة لإدراكهم أهمية رأس المال في دعم سياسة الحكم المركزي المنفرد لأنه سيضمن زيادة الإنتاج.

الكنيسة... إصلاح شامل أم سقوط مُدوٍّ



حركة الإصلاح الديني (المذهب البروتستانتي):

ـــ عندما علّق مارتن لوثر اعتراضاته على باب كنيسة ويتنبرج التي صارت تُعرف بـــ(مسائل لوثر الخمس والتسعين) لم يكن لوثر وقتها الوحيد الذي لديه اعتراضات على أوضاع الكنيسة المتردية.

ـــ لكن من الممكن القول إن لوثر كان كعود الثقاب الذي أُلقي على جماهير كانت على وشك الاشتعال، لذا فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن نقول إنه لولا مارتن لوثر لما ظهرت حركة الإصلاح، فلربما لو لم يفعل لوثر ما فعله لقام به آخرون.

- ففي ظل التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أوجدها الحداثة بدأت كل الأمور تشير إلى أن العامة لن تظل أبدًا ساكنة أمام مساوئ ومفاسد كانت تمرُّ في الماضي دون تعليق، فمن أبسط فرد ووصولًا إلى الملوك والنبلاء وعلى اختلاف الأسباب كان

السخط عارمًا على الكنيسة.

- ألقى لوثر الضوء على الكثير من ممارسات الكنيسة وبعض الأمور المتعلقة بالعقيدة الكاثوليكية التي كانت سببًا في سخط الناس وغضبهم مثل دعاوى غفران الذنوب وامتلاك سر التوبة ومنح صكوك الغفران وتفشي مظاهر الفساد والانحلال الأخلاقي في الطبقات العليا في الكنيسة وتكالبها على السلطة والأمور المادية وانغماس البابوية في المصالح الدنيوية والصراعات السياسية.

- ومسألة التضرُّع للقديسين وعبادة مريم العذراء ونظام الرهبنة والتبتُّل والاعتراف الإجباري المفصل وإقامة قداسات على أرواح الموتى، والمفهوم الكاثوليكي للقربان المقدس، وتناوُل الخبز والخمر ومسألة تجسيدهما لجسد المسيح ودمه، وأمور أخرى تتعلق بفهم الكتاب المقدس وتفسيره، وقصر حق فهمه وتفسيره فقط على رجال الكهنوت دون العامة.

***

خلفاء لوثر ومناصروه:

بعد إعلان لوثر عن آرائه وموقفه من الكنيسة لاقت قبولًا وترحيبًا واسعًا من الطبقة المثقفة في شتى أنحاء أوروبا، ولم يمضِ وقت طويل حتى ظهر العديد من الإصلاحيين الذين تبنوا أفكاره وساروا على دربه، إلا أنهم لم يكونوا دائمًا متفقين معه في كل شيء. كان من أبرز هؤلاء أورليتشي زوينجلي وجون كالفين.

***

بداية الانهيار:

– كان لظهور حركة الإصلاح الديني تلك دور كبير في انهيار الكنيسة في روما، حيث دخلت روما مع الإصلاحيين في معارك لاهوتية عنيفة فَقَدَت على أثرها سيطرتها وسلطتها الروحية على مناطق كثيرة جدًّا خاصةً في شمال أوروبا.

– حاولت الكنيسة تدارُك الموقف، ودعت لعقد مؤتمر ترنت الذي صدر على أثره عدة قرارات إصلاحية وجذرية، إلا أنه قد فات الأوان وأصبح من المستحيل إعادة عقارب الساعة لحظة واحدة قبل أن ينطق لوثر باعتراضاته تلك، من ثم تفاقمت الأوضاع، وأصبح مستعصيًا على روما استعادة زمام الأمور في يديها مرة أخرى.

– لجأت روما إلى استخدام العنف لقمع تلك الفتنة وبدأت محاكم

التفتيش تلاحق كل من يلمح إلى تلك الهرطقة الجديدة في وعظه أو كتاباته من رجال الدين أو من يُبدي إعجابا بتلك الأفكار من المثقفين والعامة.

***

الوجه الآخر لحركة الإصلاح:

– ولم يمضِ وقت طويل حتى انقسمت حركة الإصلاح نفسها إلى عدد مُربكٍ من الطوائف التي أصبح لكل منها تحيزاتها العقائدية وتأويلها الخاص للإنجيل.

– كانت كل طائفة على قناعة أنها تمتلك الحقيقة المطلقة وحدها ورغم كل ما أبداه الإصلاحيون من دعوات للتسامح وحرية الرأي والاعتقاد فإن هذا كان لتحقيق مكاسب سياسية وفي مواقف الضعف فقطـــ فكأي حركة دينية جديدة تعاني الاضطهاد كانت تبحث عن وسيلة تُؤمِّن بها نفسها وتضمن لها حرية الدعوة بين العامة دون مخاطر؛ لذلك فما إن لاقى هؤلاء الإصلاحيون تأييدًا ودعمًا من بعض الأمراء والملوك الساعين لاستغلال الموقف للانفصال عن روما حتى أسقط الزعماء الإصلاحيون قناع التسامح وانكشف وجه العنف الأعمى واللاتسامح مع كل من يخالفهم أو يعارض تعاليمهم.

رأى لوثر وجوب حرق جميع كتب الهرطقة (المذهب الكاثوليكي) ولم يتردد في طلب تدخل الأمراء الألمان المُسلح لقمع تمرد المزارعين الأشرار ممن ما زالوا على ولائهم للبابا، وبالفعل تم القبض عليهم وإعدامهم.

– كما كان كالفين أيضًا على أتم استعداد لإعدام أي معارض، أما زوينجلى فقد مات في المعركة وسلاحه في قبضته.

بينما قتل الإنجيليكان آلاف الكاثوليك في إنجلترا.



العلم والدين وجهًا لوجه



كان الأوربيون منذ القرن الثاني عشر قد تبنوا أفكار أرسطو الفزيائية المتعلقة بنظام الكون (والذي عدله وروّج له بطليموس 90 ـ168م) مثلما تبنوا أفكاره العقدية، ورغم ان أفكاره المتعلقة بالعقيدة كانت محل أخذ ورد من اللاهوتيين الأوروبيين على مدار الأربعة قرون التالية فإن أفكاره حول النظام الكوني لم تحظَ بهذا القدر من المرونة في البحث والدراسة، ويرجع هذا لسببين الأول تعلق ببدائية علم الفلك وعدم توفر تقنيات ملاحظة جيدة حيث كانت محدودة وغير كُفأة وهو ما جعل البرهنة على مدى صحة هذه الأفكار ودقتها أمرًا مستحيلًا، وأما السبب الثاني فهو أن الكنيسة قد وجدت فيه نظامًا مرضيًا دينيًا وأخلاقيًا، فهذا النظام يجعل من الأرض مركزًا للكون تدور حوله كل الكواكب والشمس والقمر والنجوم ثم بعد ذلك يوجد عالم السماء الأزلي، فالإنسان هو سيد الكون ومن أجله

خلق الله كل شيء؛ لذلك فيبدو معقولًا ومستساغًا أن تكون الأرض هي مركز الكون، فذلك يؤكد أن الإنسان هو محور الأحداث والذي من أجله وُجِدَ، وكان هذا الكون، فهذا يُظهر مدى العناية الإلهية ويوافق الحقائق الدينية.

ـــ كان ذلك النظام مُبهجًا على المستوى الروحي إلا أنه كان مليئًا بالأخطاء والفجوات العلمية.

***

كوبرنيكوس: (الأرض ليست مركز الكون) ..

- كانت أكبر مشكلة تواجه النظام الأرسطي هي عدم الانتظام الواضح الذي بدا وكأنه إحدى سمات هذا الكون، فبطليموس كان قد افترض أن الكواكب تتحرك في مدارات دائرية كاملة، ولم يكن ممكنًا له أن يتصور غير ذلك؛ لأنه كان ينظر إلى الدائرة على أنها رمز الكمال.

لكن في القرن السادس عشر كان الكثير من المشتغلين بدراسة الفلك قد لاحظوا أن بعض الكواكب تبدو كأنها تتحرك بأسلوب غير منتظم وليس دائريًا، كما أنها تكون شديدة اللمعان أحيانًا، ويشحب بريقها أحيانًا أخرى.

حاول بطليموس تفسير عدم الانتظام هذا بأن الكواكب تتحرك في شكل دوائر صغيرة أثناء دورانها في محيط دائرة أكبر مركزها الأرض.

- ورغم كل ما في هذه النظرية من مثالب فإنها ظلت وحدها النظرية المعتمَدة المُفسِّرة للنظام الكوني إلى أن ظهر كوبرنيكوس.

كان كوبرنيكوس يعمل رجل إدارة كنسيًّا، وكان يتفحص السماء ليحدد الأعياد والمواسم والشهور تسببت ثغرات علم الكون الأرسطي له في القلق والشك، إذ كيف يتأتّى للخالق أن يأتي بنظام كوني على هذا القدر من عدم الانتظام؟

- توصل كوبرنيكوس من خلال قراءته الواسعة في علم الفلك إلى نظرية للنظام الكوني مبنية على فرضية قديمة لأريستارخوس الساموي الذي كان قد اقترح أن الكواكب تدور حول الشمس، وأن الأرض تدور حول محورها الخاص. أدخل كوبرنيكوس على تلك الفرضية بعض التعديلات، حيث افترض أن الأرض تدور حول نفسها يوميًّا كما تدور هي وسائر الكواكب حول الشمس بشكل سنوي.

كما أن الحركات السماوية للكواكب والنجوم التي نلاحظها هي مجرد إسقاطات لحركة الأرض في الاتجاه المعاكس بسرعة مهولة.

- على المستوى العام لقيت النظرية نقدًا وهجومًا قاسيًا ليس فقط لأن كوبرنيكوس لم يكن باستطاعته إثباتها، ولكن لأنه كان صعبًا على الناس تصديق فكرة كون له مركز آخر غير الأرض التي تتمركز حولها أحداث الكون وأسباب الخلق، وما هو مُشاهَد وما هو غيبي فمن أجل الإنسان أوجد الله كل شيء إنها نظرية تناقض الحكمة الفطرية الأساسية، ورغم أن الرجل استطاع بعد ذلك أن يُبرهن على نظريته رياضيًّا فإن ذلك لم يكن كافيًا ما دام لم يستطع إثباتها فيزيائيًّا.

- في البداية لم تُثِر النظرية أيَّ صدام ديني، فكوبرنيكوس قدَّم فرضيته على أنها نوع من الخيال بالأسلوب التقليدي، وحينما قرأ أُطروحته في الفاتيكان منحه البابا مصادقةً حذرةِ.

- فرغم أن بعض النصوص الإنجيلية كانت تتحدث بشكلٍ أو بآخر عن أن الشمس تتحرك في السماوات والأرض راسية، فلم تكن الكنيسة مجبرة على تفسير تلك النصوص حرفيًّا، كانوا ما زالوا يتبعون مبدأ (القديس أوغسطين 354 –430 م) في تطويع النصوص إذا ما عارضت أي إثبات أو اكتشاف علمي، فالكتاب المقدس كتاب ديني، وليس كتاب علوم، فهو يوضح المعاني بطريقة بسيطة حتى يفهمها الناس ولا يحوي أبدًا أي مفاهيم علمية.

كبلر والمدارات الإهليجية:

– كانت هناك قلة من العلماء قد أعجبتهم فرضية كوبرنيكوس وحاولوا أن يطورو أفكاره. كان من أبرز هؤلاء عالم الفلك الألماني جوهانس كبلر.

– كان كبلر مقتنعًا تمامًا مثل كوبرنيكوس بأن الرياضيات هي مفتاح فهم النظام الكوني، وفي عام **1609** نشر كبلر كتابه عن الفلك وكانت تلك هي أول محاولة علنية لإثبات صحة نظرية كوبرنيكوس وحل إشكاليتها.

– كانت مشكلة النظرية أن كوبرنيكوس قد أبقى على فكرة مدارات الكواكب الدائرية كما أن هناك سؤلًا جوهريًا يحتاج إلى جواب.. ما الذي يمنع الأشياء الأرضية من الطيران بعيدًا عن الأرض إذا كانت حقًا تدور بسرعة هائلة في الفضاء.

– قام كبلر بصياغة أول (قوانين طبيعية) يمكن إثباتها:

أولًا: تتحرك الكواكب في مدارات إهليجية (بيضاوية) لا دائرية حول الشمس بسرعة تختلف نسبيًا مع المسافة التي تفصل بينها وبين الشمس.

ثانيًا: الخط الواصل بين الكواكب والشمس يمسح مساحات متساوية للفلك في أزمنة متساوية.

ثالثًا: مربع زمن دورة الكواكب حول الشمس يتناسب طرديًا مع مكعب نصف المحور الكبير.

- أصر كبلر على أنه ليس من قبيل المصادفة أن يأخذ الكون شكله هكذا، بل إن الهندسة هي لغة الله التي وجدت معه مثل (كلمته) قبل الخليقة، ومن ثم فإن دراسة الهندسة هي دراسة عن الله، وكسائر علماء عصره لم يفترض أبدًا أن العلم يصطدم بالدين، ولم تكن لديه أي رغبة في التخلص من الدين أو إقصائه، بل كان يرى أن بحثه ودراسته يمنحانه فرصة أعظم ليفكر في الله بشكل مختلف، واعتبر أنه (يتتبع بالعرق واللهث آثار خطوات الخالق).

- على كلٍّ حتى هذا كان الدين والعلم متناغمين معًا.

***

التعصب يجتاح أوروبا:

بيد أنه في نهاية القرن السادس عشر كان التعصب الديني قد اجتاح أوروبا. كان الصراع بين البروتستانت والكاثوليك قد بلغ ذروته، وفيما كانت البروتستانتينيه تحاول كل يوم أن تكسب أرضًا جديدة مهما يكن الثمن وبأي وسيلة كانت غذت الكنيسة الكاثوليكية عازمة بتعصب إعادة إحكام سيطرتها المطلقة على رعاياها.

- فرضت الكنيسة نظامًا تعليميًّا وعقائديًّا شديد الصرامة، وقلص دور الفلسفة والعلم. أصدر البابا بولس الرابع أول قائمة بالكتب المحرمة، وتلاه البابا بيوس الخامس الذي أنشأ أول لجنة كرادلة مختصة بقائمة الكتب المحرمة من أجل الإشراف على برنامج الفاتيكان الرقابي.

- أصبح نقد نظام الكون الأرسطي في منتهى الخطورة، وانهالت الإدانات على كل من يقول بخلافه، أُدينت أعمال الفيلسوف الإيطالي برناردينو تليسيو وأعمال الراهب الدومينيكاني توماسو كامبانيلا؛ لأنها تتعارض مع ما قال به أرسطو، تم سجن كامبانيلا سبعة وعشرين عامًا، فيما أُجبر فرنسيكو باتريزي على اجتناب فلسفة أفلاطون التي تم اعتبارها هدَّامة، كما أُدين أيضًا لأنه يدرس لا نهائية المسافة بين النجوم. فيما تم تنفيذ حكم الإعدام في فرانسيسكو بوتش لآرائه المهرطقة عن الخطيئة الأصلية، كما أحرق جيور دانوبرونو على خازوق لنشره هرطقة سحرةٍ ومنجمين.

***

جاليليو (فارس العلم):

وفي خضم هذا الأجواء القاتمة خرج عالم النجوم الإيطالي جاليليو جاليلي على العالم معلنًا أنه استطاع إثبات صواب نظرية كوبرنيكوس، وأنه من خلال تيلسكوبه الكاسر الذي اخترعه قد تمكن من رؤية وهدات (حفرات) القمر والبُقع الشمسية وأطوار المريخ وأقمار المشتري الأربعة، وتبين له أن الطريق اللبني ليس مجرد سحابة من الضوء، ولكنه ملايين من النجوم المنفصلة والسُّدم. طرح جاليليو أفكاره هذه في كتاب وضح فيه أن كل تلك الاكتشافات تقطع بما لا يدع مجالًا للشك أن النظام الأرسطي خاطئ، فالقمر ليس مسطحًا والشمس والكواكب لا تدور حول الأرض، كما أن الأرض لا يمكن أن تتعدى كونها كوكبًا صغيرًا يدور حول الشمس كما افترض كوبرنيكوس من قبل.

أثارت اكتشافات جاليليو ضجة كبيرة في أنحاء أوروبا، ومضى الناس يصنعون تلسكوباتهم الخاصة ليروا بأنفسهم تلك الاكتشافات الجديدة المبهرة التي ستقلب الموازين رأسًا على عقبٍ، وستضع الدين في مواجهة العلم.

- إلا أن جاليليو نفسه لم يكن يرى شيئًا من ذلك كله، كان دائمًا على اعتقاد أن نظريته هذه لا تُناقِض الدين، وأن المشكلة تكمن

فقط في تمسك الفاتيكان بالنظام الأرسطي وهو ما لا علاقة له بالدين. كان يرى أن العلم لا يمكن أن يكون يومًا في صراع مع الدين، فلكلٍّ منهما مجاله الخاص. فالميكانيكا (علم الحركة) لا يمكن أن تخبرنا شيئًا عن علم اللاهوت، كما أنه ليس هناك ما يقوله اللاهوت عن الميكانيكا، فهما مبحثان مختلفان تمامًا.

– كان يعتقد أنه حين يعجز العلم وتتوقف قُدرة العقل البشري عن إيجاد إجابات ويكون الأمر مجرد تخمين فقط فإنه من الملائم دينيًّا عند إذن التطابق مع الكتاب المقدس بمعانيه الحرفية.

– لكن جاليليو لم يكن يدرك أن الأوضاع قد تغيَّرت وأن الفاتيكان لن يقبل مطلقًا اعتبار أن ما يحويه اللاهوت هو مجرد آراء أو تخمينات، فالفاتيكان أصبح عازمًا على أن يجعل من اللاهوت وحدة اليقين المطلق الذي يُبدد شكوك العوام وريبتهم.

– قام الفاتيكان بإعادة صياغة اللاهوت في شكل مجموعة جامدة وصارمة من الآراء صيغت بأسلوب لا يدع مجالًا للنقاش أو الجدل ويصل باليقين إلى أقصى حدٍّ. وعلى هذا ظلت علاقة جاليليو بالكنيسة متوترةً للغاية إلى أن اعتلى صديقه مافيوبا رباريني الكرسي البابوي، وأصبح البابا إيربان الثامن. وحينما التقيا في روما أقام إيربان الولائم لجاليليو، ووافق على أنه بإمكانه أن يكتب ما يحلو له عن نظرية مركزية الشمس، ما دام يعرض نظريته على أنها مجرد فرضية

والتي كانت بالفعل حتى ذلك الوقت لم تجد أي برهان قاطع رغم إصرار جاليليو على أنها لم تعد فرضية ولكن حقيقة علمية.

- لكن جاليليو عقب هذا اللقاء أصدر كتابًا سمَّاه (حوارات عن نظامي العالم) ووضع فيه شخصية سماها (سيمبيسو) وتعني الأبله، واجتزأ كلمات من مقولات قالها البابا إيربان ووضعها على لسان ذلك الأبله، فثار غضب البابا واستشعر أنها إهانةٌ لذاته فتم استدعاء جاليليو للمثول أمام المكتب المقدس (الهيئة الكهنوتية العليا) وصدر حكم بإدانته بالعصيان، وأُجبر على العدول عمَّا كتبه وهو جاثٍ على ركبتيه، ثم حُددت إقامته بضيعته الريفية في فلورانس.

حقيقة من السهل التفهم انه لم يكن هناك صراع بين الدين والعلم ولكنه كان صراعًا بين علماء أرادوا أن تفكر عقولهم بحريةٍ بدون أي توجيهات أو وصاية تجبر العقل على التخلي عمَّا يراه صوابًا من أجل التوافق مع رغبات رجال الدين الذين يرغبون الآن في إعادة العوام إلى حظيرة الكاثوليكية بيقين لا يحتمل طرح فرضيات قد تسرب الشكوك إلى نفوس هؤلاء العوام.

كما أنه من السهل تفهُّم أن رجال الدين لم تكن تملكهم الرغبة في التمسك بالأساطير والخرافات، والزج بحقائق العلم بعيدًا فهم على مدى قرون سابقة لم يكن هذا هو المنهاج الذي اختاروه كانت دومًا الكنيسة الكاثوليكية مليئة برجال الدين المنشغلين بمباحث العلوم

المختلفة والراغبين في كشف حقائق الكون والحياة، ولعل أقربهم كوبرنيكوس ذاته، إلا أن الصراع المحتدم بين الفاتيكان والإصلاحيون هو من فرض نفسه على المشهد العام وأدخل رجال الدين في صراع لم يحاولوا يومًا أن يكونوا طرفًا فيه.

***

حرب الثلاثين عام:

- عمومًا وفيما بدأ البساط ينسحب من تحت أقدام روما بدأ الأمراء والملوك في أنحاء أوروبا يوجهون ضربتهم القاضية بالانفصال النهائي عنها وتكوين ممالك قومية مستقلة.

- سعى هؤلاء الأمراء إلى تنمية المشاعر والنعرات القومية لدى شعوبهم لكن الكارثة الأكبر كما ذكرت سابقًا كانت في استخدامهم الدين كسلاح فعال في إدارة المعركة وحسمها.

- اختار كل واحد من هؤلاء إما تبني المذهب الجديد وإعلان الجهاد المُقدَّس من أجله وإما الإبقاء على الكاثوليكية ومحاربة تلك البدعة الجديدة.. كلًّا حسب ما تتراءى له المصلحة.. وهكذا اجتاح العنف الطائفي أوروبا.

-تذرعت إنجلترا بدعمها للمذهب الإصلاحي، وأعلنت أن كنيسة الإنجليكان هي الكنيسة الرسمية للدولة، وعلى أثر ذلك أعلنت انفصالها النهائي عن روما.

- اندلعت الحرب الأهلية في إنجلترا وتمت التصفية الدموية للكاثوليك.. وقُتل أكثر من سبعين ألف شخص.

- بينما كانت فرنسا غارقه في بحور من دماء البروتستانت الذين قُتلوا على يد الأغلبية الكاثوليكية.

- أما الإمارات الألمانية فقد كانت تخوض حربًا ضروسًا للحصول على الاستقلال من الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

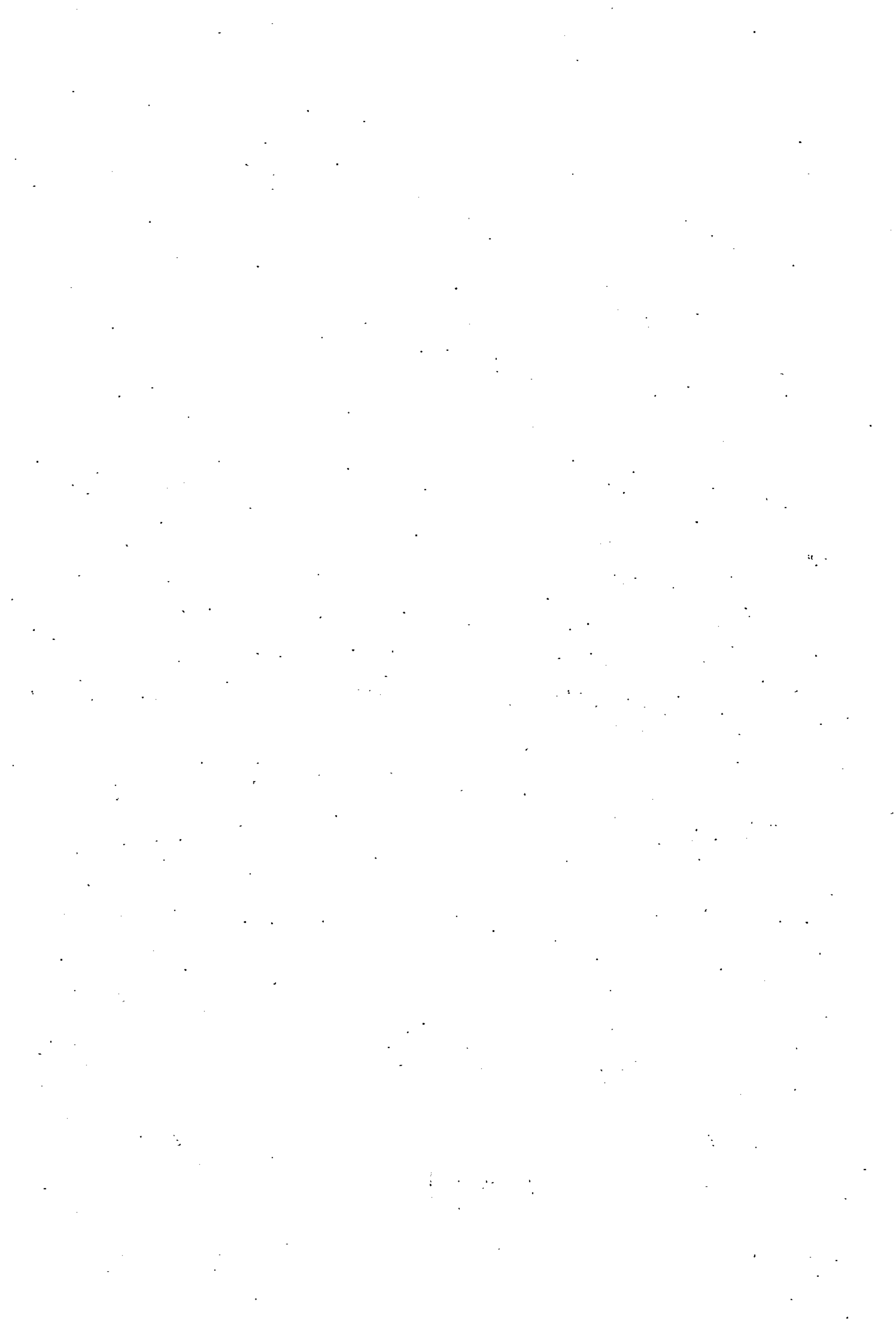
دعمت السويد الأمراء البروتستانت بينما دعمت النمسا الكاثوليك .

قتل أكثر من ٣٥ ٪ من سكان أوروبا، وتحولت القارة إلى مستودع للجثث.

-كان الكاثوليك كلما تفاخروا بذبح البروتستانت قام البروتستانت بحرق معاقل الكاثوليك دون هوادة.

اهتزاز مكانة الدين في نفوس العوام:

- كان لإقحام الدين في صراعات السلطة بين الملوك والكنيسة واستخدامه كأداة سياسية وإشعال الحروب الدامية والمذابح باسمه وفرض عقيدة أو مذهب بعينه من قبل الملوك على شعوبهم.. كذا ممارسات الكنيسة.. كل ذلك قد كان له أثر واضح في تغير نظرة العامة تجاه فكرة (الدين) حيث تنامى لدى كثيرين شعور بأن الدين هو سبب المشكلات والأزمات التي يعانيها العالم في ذلك الوقت.. وهو ما بدأ يفقده مكانته في قلوب العامة.



التجربة اليهودية



- وبرغم من كل هذا لم يكن أول الملحدين الحداثيين مسيحيًّا أفقدته تلك الصراعات المُضنية بين الفاتيكان والإصلاحيين والعلماء إيمانه وأتعبته ويلاتُ الحروب الطائفية الدامية التي خاضتها بلاده، ولكن كان أول من لفظ الإلحاد إلى دنيانا في العصر الحديث يهودًا عاشوا في أكثر بقعةٍ يسودها التسامح والسلام في أوروبا. كان اليهود من أكثر مَن عانوا تلك التحوُّلات السياسية والاجتماعية التي أوجدتها الحداثة حيث عانوا ضغوطًا نفسية واجتماعية كان لها عميق الأثر على الشخصية اليهودية بصفةٍ عامة نتيجة القهر والقمع، وأحيانًا الإبادة التي تعرضوا لها فقط لكونهم يهودًا.

- لذلك أدرك الكثير من المثقفين اليهود مبكرًا ضرورة إقصاء الدين عن الحياة العامة حيث إن استمرار تلك العصبية الطائفية وذلك الترسيخ للعروش على أساس مذهبي يُهدِّد مستقبل بقاء هويتهم

اليهودية في أوروبا.

وعلى هذا فقد كانت النخبة المثقفة والرأسمالية من اليهود من أكثر الداعمين والمروجين لكل الأفكار التحررية التي ستظهر فيما بعد والتي تدعو إلى فصل الدين عن الحياة العامة ووضعه في نطاق خاص به.

***

هولندا أرض الأحلام:

ــ كانت هولندا هي الدولة الوحيدة التي جنبت نفسها الخوض في تلك الحروب الطائفية التي اجتاحت أوزوبا؛ لذا ففي الوقت الذي كانت تعيش فيه أوروبا ركودًا اقتصاديًّا عاصف بعد تلك الحروب المقدسة كان الهولنديون يتمتعون بعصر ذهبي من الازدهار والتوسع الاقتصادي.

ــ لم يكن الدين يشكل مشكلة لليهود ولا لغيرهم.. فالدولة لم تتبنَ مذهبًا فكريًّا بعينه، وسمحت الجميع بالتعايش بحرية تامة وممارسة الشعائر وإقامة الطقوس والعبادات لجميع الأديان والمذاهب وهكذا تجنبت هولندا آثار العصبية العمياء التي أصابت أوروبا، ولم تجعل من الطائفية والتعصب المذهبي عقبةً تواجه تقدم المجتمع.

- إذن لم تكن المشكلة هي الدين ولكنه كان وسيلة وأداة في أيدي الملوك ورجال الدين لتحقيق مكاسب ومصالح فردية بحتة.

***

هجرة إلى بلاد الحرية:

- في نهاية القرن السادس عشر سمحت البرتغال لليهود الخنزيريين بمغادرة البلاد.

كانت هولندا هي الوجهة التي قصدها أغلب هؤلاء المهاجرين.

- ففي هولندا وحدها يستطيع هؤلاء أن ينخرطوا في مناحي الحياة كافة دون أي إشكالات، كما أنه ليس مفروضًا عليهم العيش في جيتوهات كباقي بلدان أوروبا والأهم من ذلك كله أنه سيصبح لهم مُطلَق الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية دون أي أشكالات.

***

طقوس صادمه:

حينما وصل هؤلاء اليهود إلى هولندا كان لديهم شوق وتعطش شديد لممارسة شعائرهم الدينية التي حُرموها عدة قرون.

- لكن شيئًا يشبه الصدمة الجماعية قد أصابت أولئك المهاجرين حيث بدت لهم هذه الحياة الدينية مربكة واعتباطية وأن هذا الموروث

الديني لا علاقة له بما كانوا يقرؤونه في الكتاب المقدس فهم لديهم تصور للحياة الدينية التقليدية قد تكون خلال قرون المعاناة بأن طقوس اليهودية ما زالت هي نفس الطقوس التي كان يمارسها اليهود الأوائل التي تذكرها التوراة.

***

المعبد يعيد خرافه الضالة:

خاض الحاخامات اليهود معركة صعبة مع هؤلاء الوافدين حتى يعيدوهم إلى حظيرة المعبد ــ إلا أن أقلية ضئيلة من هؤلاء اليهود وخاصة المثقفين منهم رأت أن الالتزام بهذه الشعائر والطقوس غير المعقولة مستحيل.

أورييل دا كوستا:

ــ رأى الوافد البرتغالي أورييل دا كوستا أن كل تلك المعاناة التي لاقاها اليهود بسبب ذلك الدين الذي ملأته الخرافات والخزعبلات أمر صدام للغاية، فقد كان يظن دومًا أن اليهودية المعاصرة ليست كالمسيحية التي امتلأت بأحكام لا علاقة لها بالكتاب المقدس وتعاليمه وأنها ما زلت تحتفظ بنقائها ولم يطرأ عليها أي متغيرات بعيدة عن كلمة الرب.

- وجه دا كوستا انتقادات حادة لرجال الدين ونشر بحثًا هاجم فيه التوراة وأعلن أنه لا يؤمن سوى بالعقل البشري وقوانين الطبيعة وأن الأديان هي سبب المشكلات والمصائب التي يعني منها البشر وأنه باستبعاد فكرة الدين سيحل السلام وستنتهي جميع الصراعات التي تملأ العالم.

خوان دا برادو:

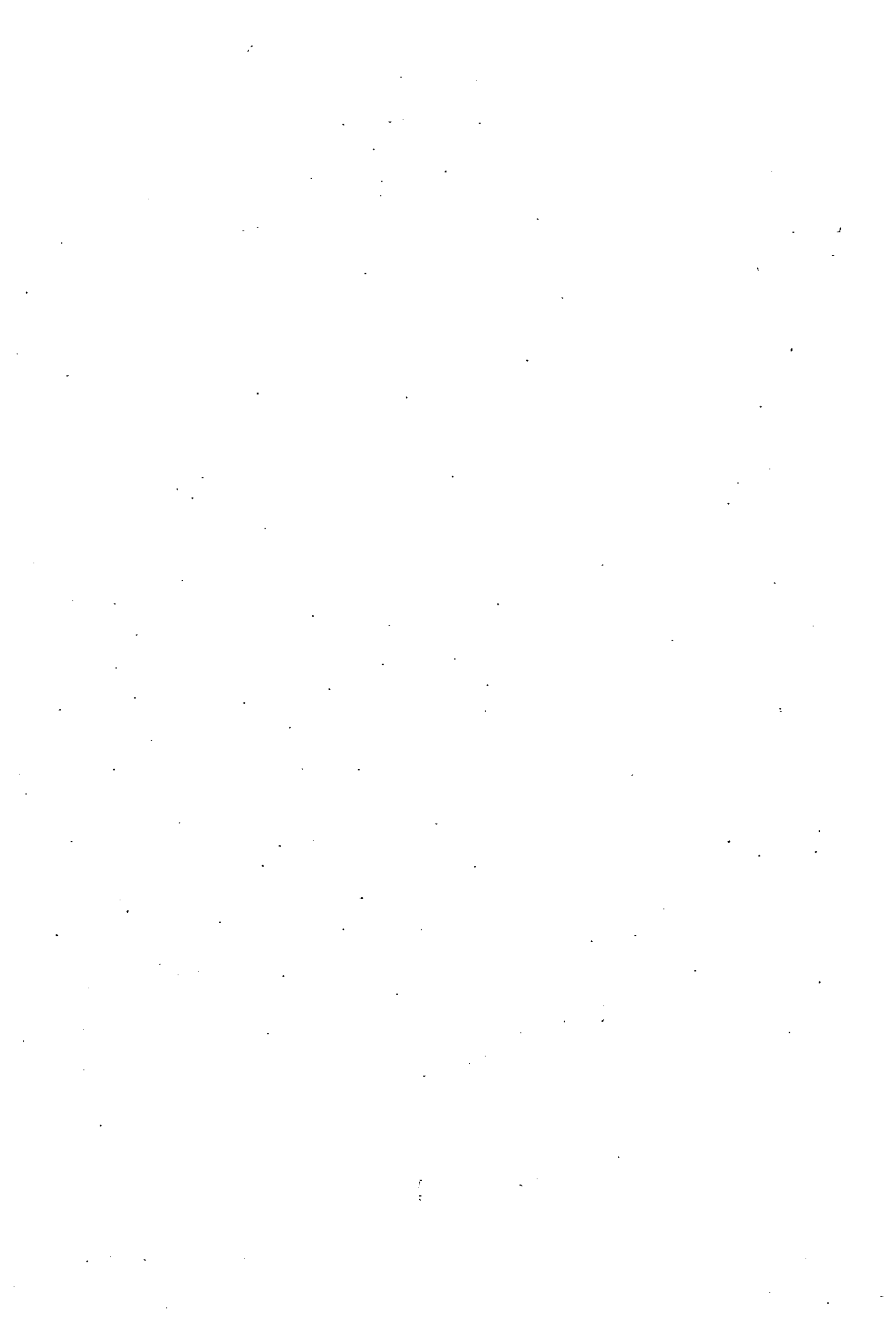
- وصل خوان دا برادو إلى أمستردام بعد ١٥ عامًا من انتحار دا كوستا الذي كان قد ملأه اليأس من الحياة.

- وجد هو أيضًا أن كل التدريبات الروحية التي يمارسها اليهود الهولنديين بعيدة كل البعد عن أفكار الدين التقليدية.

- كما أنه قد أصابته هو الآخر الصدمة عندما وجد الجالية اليهودية تعمل في جميع مناحي الحياة مندمجة تمامًا مع المجتمع، ولا تعيش في عزلةٍ كباقي الجاليات اليهودية في أنحاء العالم، وتساءل: لماذا كان يشعر اليهود بالتسامي والتميز عن باقي البشر؟ ولماذا كان كانوا يصرون على أنهم شعب الله المختار؟ وماذا جنوا من تلك العزلة؟

ولم يمضِ عامان على وصوله حتى تم طرده وحرمانه من المعبد -

- أصبح برادو بعد طرده أكثر تطرفًا في آرائه، وقال إن كل الدين هراء، وأن العقل البشري وحده (لا التنزيل) هو الذي يقرر الحقيقة.



الـديــن العلمــي



ديكارت (أوجدَ اليقين ليُبدِّدَه):

وبرغم كل تلك الأحداث كان هناك بصيص من الأمل يحمله بعض اللاهوتيين والعلماء الذين كانوا غير راضين تمامًا عن تلك الرؤية الأحادية الضيقة للفاتيكان.

– كان من أبرز هؤلاء الفيلسوف والعالم الفرنسي رينيه ديكارت الذي كون نهجًا فلسفيًا مؤسسًا على العلوم الرياضية، حيث رأى أنه من خلال ذلك المنهج بإمكانه أن يصل إلى اليقين المطلق، وينقذ أوروبا كلها من الهاوية التي سقطت فيها.

– كان هدفه أن يعثر على حقيقة من الممكن للجميع أن يتفقوا حولها بحيث يستطيع كل الناس من ذوي النيات الطيبة والإرادة الخيرة العيش معًا بسلام ليس على اختلاف المذاهب والأفكار

وحسب ولكن على اختلاف الأديان.

- كان ديكارت متأثرًا كأغلب جيله بالفيلسوف الكبير (ميشيل ده مونتن) بل إنه استلهم منهجه هذا من إحدى عباراته (إذا لم نستطع العثور على شيء واحد نشعر نحوه بيقين تامٍّ فلن نستطيع التأكد من شيء على الإطلاق). سعى ديكارت إلى إيجاد هذا الشيء اليقيني الأوحد الذي تكلم عنه مونتن... وبدأ يفرغ عقله تمامًا من كل ما يعتقده وألا يعتبر أي شيء حقيقيًّا أو موجود إلا إذا تأكد بوضوح أنه كذلك بدرجة لا يجد معها أي سببٍ للشكِّ.

- وبينما هو يحاول أن يجد برهانًا على صحة أي فكرة اكتشف أن أول حقيقة موجودة ومؤكدة بدرجة لا يمكن زعزعتها هي (ذاته) تلك التي تفكر وتشك. (أنا أفكر إذن أنا موجود).

- اعتقد ديكارت أنه قد وجد ما كان يبحث عنه مونتن وأنه بذلك قد أصبح هناك شيء يمكن للجميع ان يشعر نحوه بيقين تامٍّ. ثم بدأ يتدرج من خلال منهجه التَّشكُّكي هذا لإثبات وجود الله.

- رأى ديكارت أن تشككه هذا يعدُّ دليلًا على نقص نفسه وعدم كمالها وإدراكها لكل شيء. بل إن إدراكنا لعدم كمالنا هذا يعد دليلًا علي أننا نعرف مسبقًا معنى الكمال ونعرف جيدًا عدم قدرة ذواتنا المحدودة علي الوصول إليه رغم سعيها الحثيث نحوه. وهو ما اعتبره ديكارت برهانًا على وجود كائن أكثر كمالًا مما عليه طبيعتنا المحدودة

التي تسعى إلى محاكاته وتقليده في كل أنواع كماله وهذا الكائن هو من يطلق عليه (الإله) وهو من وضع بداخلنا هذا السعي لبلوغ الكمال. وما إن أثبت ديكارت وجود الله حتى انتقل إلى إثبات وجود العالم فالله إذا كان كاملًا إذًا فهو ليس بمخادع؛ لذا فلابد أنه قد أعطى حواسنا القدرة على إدراك العالم الخارجي على نحو صحيح وحتى لو أخطأنا في تقدير أو فهم شيئًا ما في هذا العالم، فإنه حتمًا سيمنحنا القدرة على تصويب ذلك الخطأ، وإدراك الحقيقة. وعلى أثر ذلك اعتقد ديكارت أن البشر في مقدورهم إدراك وفهم العالم بنفس الطريقة التي يفهم ويدرك بها الله هذا العالم.

– رأى ديكارت أن الله قد خلق هذا العالم ووضع له قوانين يسير عليها، ثم أطلق حركته وتركه يُدير نفسه وانسحب هو فلم يعد هناك حاجة لتدخله. فبالنسبة لديكارت كانت العلاقة بين الكون والله كالعلاقة بين الساعة وصانعها فبمجرد أن أتم صنعها تركها تعمل ولم يعد هناك أي حاجة لتدخله. تنامى اليقين بداخل ديكارت بدرجه أنه رأى أن العلماء في عصره مخطئون في ظنهم أننا من الصعب أن نركز دراستنا فقط على الأمور التي يمكن للإنسان الإلمام بها بشكل يقيني لا يمكن الشك فيه لأنها نادرة جدًّا، بل على عكس ذلك صاغ قاعدة في كتابه (قواعد لتوجيه الفكر) قال فيها: (ينبغي أن نقصر اهتمامنا على الموضوعات التي يبدو فكرنا قادرًا على اكتساب معرفتها اكتسابا

يقيني لا يدخله ريب.. وهذه الموضوعات كثيرة جدا بدرجة لا نتوقعها).

ـ قلبت أفكار ديكارت أوروبا رأسًا على عقب حيث استثارت فكرة (الكون الآلي) الذي تتحكم فيه قوانين مطلقة في كل زمان ومكان إعجاب اللاهوتيين. كانت خطوة مصيرية حاسمة غاية في الخطورة، فمنذ ذلك الحين أخذ اللاهوت يترجم إلى مصطلحات علمية وأصبح الإله مجرد شخص أو كائن أعظم من الإنسان وحسب.

– جون لوك... يخطُّ أولى كلماته عن اللبرالية: (الدين العلمي والإله العقلاني).

– أخذ الفكر الأوروبي بعد ديكارت منعطفًا آخر حيث عظمت أفكاره من قيمة العقل والعلم لدى كثير من اللاهوتيين والفكرين الذين رأوا أنه بعد أن تم إخضاع فكرة (الله) للعقل وإثباتها بالعلم، لم يعد هناك مجالًا للكشف والتزيل، وما إلى ذلك من الأفكار التي لا يمكن إخضاعها للعقل.

– كان من أبرز المتبنين لتلك العقلانية الجديدة الفيلسوف الإنجليزي جون لوك الذي لم تكن أفكار ديكارت وحدها هي الدافعة له لتبني هذا النهج الفلسفي.

- من الممكن القول إنه غالبًا ما تجد في المجتمعات التي يطغى فيها نظام سياسي أو اجتماعي معين، وتتردى فيه أحوال الناس وتستأثر فيه فئة أو طبقة معينة بالسلطة أو الثروة.. تظهر كردة فعل نظريات ومذاهب فكرية ناقمة بالكلية على هذا النظام الموجود ومعادية له وتفترض دائمًا أن الصواب والإصلاح في إيجاد نظام مناقض تمامًا للموجود.. أي من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ومثل تلك التوجهات الفكرية التي تدعو إلى تغييرات جذرية غالبًا هي التي تجد لها قبولًا لدى العوام الذين ألّم بهم السخط على أحوالهم ومعيشتهم ونادرًا ما تجد الأفكار الإصلاحية المعتدلة التي لا تسعى إلى مثل تلك التحولات الكبيرة مكانًا لها في نفوسهم... وكذلك كانت اللبرالية.

- فعندما خط جون لوك أولى كلماته عن اللبرالية كان ذلك في بيئة إنجليزية مشحونة بصراع سياسي عنيف بين أغلبية إنجيليكية وأقلية كاثوليكية حيث عانى فكرة التعصب الديني فتجه إلى نقيضها.

- لهذا فقد رأى لوك أن (فن الحكم) على حد تعبيره ينبغي إلا يحمل بين طياته أي تعريف للدين الحق أي أن التسامح الديني يستلزم ألا يكون للدولة دين، كما أن وحدة الدين ليست ضرورية للتنظيم الاجتماعي الصالح.. ركز لوك بشكل كبير على تأكيد فكرة (الحرية الفردية) حيث لا سلطان على حقوق الإنسان الدينية والدنيوية من أي جهة مهما تكن... في النهاية يمكن القول إن جون لوك قد كانت

أفكاره وكتابته في مجملها مكرسةً بالأساس لمجابهة مفهوم التطابق الأيديولوجي، وما نتج عنها من نظام سياسي واجتماعي. كان لوك مقتنعًا أن التعصب الديني الذي مزق أوروبا كان ببساطة بسبب فكرة الناس القاصرة عن الله، فالإنسان إذا أتيح له أن يفكر بعقلانية، فإنه يستطيع أن يجد العديد من الأدلة التي تملأ العالم الطبيعي، والتي تؤكد وجود الله، وعندها فلن يكون هناك حاجة للكشف والتتريل أو الغيبيات والغيبيات والطقوس أو الصلوات أو أي شيء من تلك الخزعبلات والخرافات، فالمهم أن يعرف الإنسان الله لا أكثر.

-- رأى لوك أن الله ببساطة هو (الكائن الأعظم) وإذا أردنا أن نُكوِّن فكرة أو صورة مركبة عنه، فإن كل ما علينا هو أن نقوم بتكبير كل الأفكار والصفات الصغيرة الجيدة لدينا ثم نضعها كلها معًا لتشكل صورتنا المركبة عن الله.

بلــيــز باســكــال

(الدين تحت رحمة العلم)



في تلك الأثناء كان عالم الرياضيات الفرنسي بليز باسكال قد لفت انتباهه ذلك الخطأ الجسيم الذي وقع فيه رجال اللاهوت والعلماء في عصره حيث وصفهم بأنهم متحمسون بشدة لاعتناق الكفر الحديث، فهم سرعان ما استجابوا إلى تلك الأفكار العلمية الجديدة التي تتحدث عن الله، حيث رأوا أنها ستجعل من اللاهوت سهلًا وواضحًا وغير معقد، ويصل لليقين بسهولة ويسر إلا أنهم تغافلوا عن ذلك الخطر الشديد الذي يحمله اللاهوت العلمي.

– فمن الآن وصاعدًا إلى أي مدى سيتدخل العلم في الدين؟ وذلك الإله العقلاني بأي درجة سيؤثر في حياة الناس، وهل سيمنحهم القوة الروحية التي تمكنهم من تخطي ظلمة بشريتهم أم أنه لن يتعدى كونه مهندسًا بارعًا للطبيعة.

- تنبأ باسكال بأن تلك المفاهيم الجديدة حول الإله لن تتسبب إلا في إلحاد الناس. حيث إنه سرعان ما سيصبح الإنكار التام لوجود الله خيارًا جديًّا، وإن العلم في طريقه إلى أن يزيح الدين من فوق عرشه فرجال الدين هم من وضعوا الدين تحت رحمة العلم.

***

مفاهيم جديدة حول الدين والإله:

- وسرعان ما بدأت العديد من المفاهيم الجديدة والأفكار الغريبة حول الدين في الظهور والانتشار. ظهرت طوائف بروتستانتينية جديدة مثل اللفرز والكويكرز والديجرز والماجلتونيانز ادعت أن الله يسكن الطبيعة، بل رأى بعضهم أنه هو الطبيعة ذاتها، إذًا فليس هناك أي داعي لوجود رجال الدين والكنائس. كما رأى جورج فوكس مؤسس جمعية الأصدقاء أن على المسيحيين البحث عن نورهم الباطني الخاص، وأن يستفيدوا من فهمهم للحقيقة بدون توجيه أو مساعدة من أحد. كما كان يرى أيضًا أن الدين لا بد أن يكون تجريبيًّا في عصر العلم، فيجب أن يتم اختبار جميع التعاليم والأفكار بالتجربة والخبرة.

- أما ريتشارد كوبين فقد قال: إن الله الموجود بداخلنا (الضمير الإنساني) هو المرجعية الوحيدة الحقة. بينما صرح جاكوب بوثيوملي إن عبادة (إله) مميز منفصل عن البشر والطبيعة يعتبر (وثنيه) لأن الله هو جوهر كل شيء.

-سبينوزا (رائد العلمانية):

ـ أما في هولندا فقد كان الفيلسوف اليهودي براوخ اسبينوزا الذي كان معاصرًا لخوان دا برادو قد صاغ أفكارًا أكثر راديكالية من معاصريه. ولد في أمستردام لأبوين من اليهود الختريين، درس الديانة اليهودية بالإضافة إلى الفلسفة والرياضيات والفلك والفيزياء.

- وفي مطلع شبابه قرر سبينوزا التوقف عن حضور المراسم الدينية وبدأ يجهر بشكوكٍ جدية حول اليهودية. أعلن سبينوزا أن ما نسميه (الله) هو ببساطة المجموع الكلي للطبيعة ذاتها، وبدأ يكرس لمذهب وحدة الوجود ولكن في ثوب مادي بحت.

ـ فالله والطبيعة اسمان لحقيقة واحدة، فهو موجود في كل تفاصيل الكون من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة، هو النظام والقانون الذي يسير كل شيء، فما نعنيه بكلمة الله على وجه التحديد هو المجموع الكلي لقوانين الطبيعة، فالله ليس منفصلًا عن هذا العالم. فكل شيء في الوجود يحوي الحقيقة الإلهية أو بطريقة أخرى فإن الحقيقة الإلهية هي الوجود ذاته.

ـ أصدر الحاخامات قرارًا بطرده وحرمانه كنسيًّا، فأعلن ترحيبه بهذا القرار وأصبح بذلك من أوائل العلمانيين الذين استطاعوا العيش فعليًّا خارج نطاق الأديان الرسمية المعترَف بها دون أن يفقدوا قدرتهم على التكيف مع المجتمعات التي يعيشون فيها، حيث استطاع أن

يكمل حياته خارج الطائفة بأسلوب لم يسبق لأحد من أسلافه العيش به، فعلى عكس دا كوستا ودا برادو استطاع سبينوزا أن يكون صداقات وعلاقات كثيرة وصلت إلى أشخاص في مراكز السلطة.

***

نيوتن يجد وظيفة كونية محددة لله:

- كان الفيزيائي الإنجليزي الشاب إسحاق نيوتن معجبًا بأفكار ديكارت الشمولية التي تسعى إلى تفسير التجربة الإنسانية كاملة. كما سعى إلى إيجاد برهان علمي واضح يثبت أفكار جاليليو. وهو ما استطاع بالفعل أن يُحققه من خلال تكوين رؤيه تركيبية متكاملة من فلسفة ديكارت وقوانين كبلر لحركة الكواكب وأفكار جاليليو عن الحركة الأرضية... كما أثبت أن الجاذبية هي السبب الأساسي في حفظ التوازن الموجود بالكون، فهي التي تحفظ حركة الكواكب في مدارها حول الشمس، وكما تجذب الشمس الكواكب تجذب الأرض كل ما عليها كما تجذب القمر أيضًا نحوها.

- وأخيرًا أصبح هناك تفسير متكامل للنظام الشمسي. فيمكننا الآن أن نفهم لماذا تحافظ الكواكب على حركتها مستقرةً في مدارات محددة بنفس السرعة ونفس المسافة، كما يمكن أيضًا تفسير دوران الشمس، حركات القمر، حركات المد والجزر في البحار، سقوط الأشياء على الأرض، والكثير من المفاهيم الكونية حيث لم يعد هناك

شيء مُبهَم في النظام الكوني.

– لكن نظرية نيوتن هذه حتى تصبح شمولية حقًّا لا بد من إيجاد إجابة قاطعة لسؤال مهمٌ ألا وهو: (كيف وُجِدَ النظام الكوني بالأساس؟) وإذا كانت المادة خاملةً فمن أين أتت المادة بهذه القوانين المحكمة المسيرة للنظام الكوني. ولعجز النظرية على أن تجد تفسيرًا ماديًّا وأضح لهذه الإشكالية، فقد رأى أنه لا بد أن تكون قوة خارجية تتمثل في (كائن فائق الذكاء والقوة) هو الذي وضع لهذا الكون نظامه وقوانينه. ومن ثم فإن وجود إله أصبح ضرورةً علمية حتميةً لتفسير نظام الكون بأكمله.

– لكن (إله) نيوتن هذا حسب ما رأى هو لا يمكن دراسته أو التعرف عليه إلا من خلال دراسة الفلسفة الطبيعية. فليس هناك إمكانية لإخضاعه لأي أفكار لاهوتية نظرية، فالعلم الآن أصبح هو اللاهوت الوحيد الذي يمكنه الحديث عن الله.

***

الدين العلمي:

– ساعدت أفكار نيوتن بشكل كبير على انتشار ما صار يُعرف ب(الدين العلمي) ذلك الدين الذي يستمدُّ يقينه على وجود الإله من الطبيعة، بل ويراه جزءًا لا ينفصل عن تلك الطبيعة. حيث حظيت تلك الفكرة بقبول كبير في أوروبا والمستعمرات الأمريكية.

- كان أغلب المثقفين والمفكرين يرون أنه لم يعد هناك مجال للشكِّ، فالعلم أصبح يبرهن للعقل بالدليل القاطع على وجود الله؛ لذا فالإلحاد لم يعد أمامه سبيل إلا الانزواء وللأبد.

- فمثلًا اعتقد الكاتب والفيلسوف الفرنسي الساخر (فولتير) أنه (بعد اكتشاف العلماء للأدلة القاطعة على وجود الله، فلن يكن هناك سوى عدد قليل جدًّا من الملحدين أقل من أي وقت مضى).

أما توماس جفرسون أحد المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية والمؤلف الرئيسي لإعلان استقلالها،ومؤسس الحزب الديموقراطي وثالث رئيس للولايات المتحدة الأمريكية، فقد رأى أنه (من المُحال أن يتفحص أي عقل ذي بنية عاديةٍ الخُطةَ المُتجلية في كل ذرة بالكون وينكر ضرورة وجود قوة بصيرة رقيبة) أما رجل الدين والكاتب كوتن مثير فقد قال:(إذا كان الناس يبدون كل هذا الإعجاب بالفلاسفة لاكتشافهم جزءًا صغيرًا من الحكمة التي صنعت كل شيءٍ، فلا بد أن يكون هؤلاء الذين لا يعجبون بهذه الحكمة ذاتها مصابين بالعمى التام).

- لكن بالرغم من أن الإيمان بالله أصبح ضرورة علمية بمثل ما كان ضرورة لاهوتية لأن التخلي عن الله قد أصبح يعني التخلي عن التفسير العلمي المقنع للعالم، فإنه كما قلنا من قبل قد أصبح هناك عدد كبير من المناصرين لهذا اللاهوت العلمي الجديد يرون أنه لم يعد هناك إمكانية للمعتقدات القديمة أن تستمر جنبًا إلى جنب مع

المعتقدات الجديدة. فبعد أن عانى العالم على مدار سنوات طويلة العصبية الدينية والحروب والصراعات اللاهوتية وملايين الجرائم التي ارتُكِبت باسم الرب وفلسفة التفويض الإلهي التي أخذت أوروبا إلى عصور من الظلمات والتخلف، وكان آخر آثار ذلك كله حرب الثلاثين عامًا، لم يعد هناك مجال لخُرافات الدين وأساطيره و خزعبلاته، كما أنه ليس من المنطق استمرار التمسُّك بطقوس الدين الكثيرة التي لم تعد تحمل أي معنًى أو قيمة حقيقية، فقد أصبح لزامًا على الدين أن يتغير ليحل محله – كما رأى كوتن ميثر – دين جديد يكون بسيطًا وبعيدًا كل البُعد عن أي جدال.

– أما فولتير فلم يفترض فقط أن يكون ذلك الدين سهلًا ومتسامحًا فقط بل رأى أنه لا بد أن يعلم الناس كثيرًا عن السلوك الأخلاقي وقليل جدًّا من الأفكار اللاهوتية، كما لا بد ألا يأمر الناس بالاعتقاد في أشياء مستحيلة ومتناقضة، ولا يهدد أي شخص ذي حكمة أو فكر مخالف بالعذاب الأبدي، ولا يُغرِق الأرض بالدماء بناء على سفسطة غير مفهومة.

– أما جوناثان إدوردز رجل اللاهوت الكالفيني فقد رأى أنه من الاعتباطيةِ النظر إلى الله على أنه ذلك الرب الذي يتدخل في شئون الناس بدرجةٍ أنكر معها جدوى التوسُّل إليه في الصلاة.

– بل إن هناك من ذهب إلى أبعد من ذلك، ورأى أنه ليس هناك حاجة للإصرار على الإيمان بالغيبيات والإبقاء عليها، كما أنه يجب أن

تنتهي وظيفة الكنيسة وللأبد، حيث إنه لم تعد هناك حاجة لإبقائها، فالناس الآن يستطيعون اكتشاف الحقيقة بأنفسهم بدون الحاجة إلى تعليمات من رجال الدين.

***

جان جاك روسو (يُكوِّن صورته الخاصة بإله الأخلاق):

أما الفيلسوف الشهير جان جاك رسو الذي وُلِدَ في سويسرا واستقر في باريس، فقد كان مهتمًّا بإعلاء قيمة الأخلاق، حيث كان تركيز روسو منصرفًا بالكلية إلى نشر القيم والأخلاق والفضيلة، لم يكن رسو معتقدًا مثل أغلب معاصريه بذلك الإله العلمي، بل على العكس رأى أن تلك الأفكار العلمية حول الدين والإله لن تُسبب إلا الانقسام، حيث سينفصل المثقفون والعلماء بالكلية عن عوام الناس والبسطاء الذين من الصعب عليهم تفهُّم أي شيء من ذلك اللاهوت العلمي، أما المسيحية وإلهها التقليدي فلم يشغلا بال روسو كثيرًا حيث رأى أنه لا يُمثل إلا مجرد إسقاط للرغبات البشرية رأى روسو أن الله ببساطة لا يمكن أن يُكتشف إلا من خلال الأخلاق بعد تفريغ الذات وفعل الخير والتعاطف مع الآخرين والتفحُّص المتواضع لروعة الكون وجَلاله.

الإلحاد النابع من الرافض

لكل ما هو قديم



إلا أن هذا لم يكن كل شيء، فلقد كان هناك تيار من الفلاسفة ذا حضور قوي خاصة في فرنسا، قد رأوا في الدين أصل كل الشرور وعلة كل الخطايا التي اقترفتها البشرية، وسبب كل الدماء المسفوكة باسم الرب، إنه ينتمي إلى ذلك العصر القديم الذي جاء انعكاسًا لبدائيته وبربريته ووحشيته، وقد آن الأوان في عصر العلم والتنوير أن ينحي كل ما هو قديم وبدائي جانبًا كما أنه لا يجب أن نشغل عقولنا كثيرًا ببحث (الفكرة الإلهية)، لذا فمن الممكن القول إن الأفكار الداعمة للإلحاد لم تظهر في تلك المرحلة إلا بسبب رفض الدين وليس إنكار وجود (إله).

***

أفكار دونيس ديدرو المبكرة حول التطور:

- في عام 1749 قام الروائي الفرنسي الشهير دونيس ديدرو بنشر كتيب بعنوان (خطاب العميان لاستخدام المبصرين) والذي كان سببًا في دخوله السجن، أوضح فيه أنه ليس مقتنعًا بالبرهان الذي قدَّمه نيوتن على وجود الله، وأنه في بداية الزمان، لم يكن ثم أثر لله، فلم يكن هناك إلا جزئيات تدور في دومات من الفراغ، ومن المحتمل أن تطور عالمنا قد تم باعتباطية وفوضى، وليس كما ظن نيوتن من خلال عملية هادفة مُرتبة ومنظمة، وأن الكون وإن بدا ككل منتظم ومرتب إلا أن الأجزاء تبدو متضادة يفني بعضها بعضًا، وأكبر دليل على ذلك صراع الحياة بين الكائنات على سطح الأرض. ألمح ديدرو إلى فكرة (الانتقاء الطبيعي) التي رأى أنها قاسية للغاية، وأن الخطة التي نراها في الكون ترجع ببساطة إلى بقاء الأصلح حيث لم يستطع البقاء سوى الحيوانات التي لم تكن بنيتها معيبه بأية درجة مهمة أو التي كان باستطاعتها أن تطور من نفسها.

- رأى ديدرو في النهاية ان الاعتقاد في الله أو عدم الاعتقاد فيه أمر غير مهمٍّ على الإطلاق. على الرغم من أنه عندما أرسل إليه فولتير خطابًا وهو في السجن يُراجعه فيما كتبه من أفكار رد عليه ديدرو بأنه لا يتبنى هذه الآراء، وأنه يعتقد في وجود الله، لكنه يتفهَّم أفكار الملحدين ويحاول أن يُعبِّر عنها ويعرضها.

-- وبعد خروج ديدرو من السجن دعا لمراجعة دائرة معارف (إنسايكوبيديا)، لكنه غيَّرها بالكامل، وجعل منها سلاحًا لنشر أفكاره، كما أشرك ديدرو معه عددًا من الفلاسفة والمفكرين الذين يتبنون نفس أفكاره.

***

البارون دهولباخ يكتب: (إنجيل المذهب الطبيعي العلمي):

كان من بين من استعان بهم ديدرو في تطوير دائرة المعارف (إنسايكوبيديا) الفيلسوف الألماني الأصل المستقر في فرنسا البارون دهولباخ الذي كان يشرف على صالون ثقافي عُرف عنه أنه (مستولد الإلحاد) ساعد ديدرو دهولباخ على نشر كتابه (نظام الطبيعة) الذي جمع فيه مناقشات أعضاء صالونه الثقافي، حيث كان الكتاب يحوي أفكارًا معادية تمامًا للفكرة الإلهية.

- ذكر دهولباخ في كتابه أنه لا يعتقد بوجود علة نهائية أو خطة عظمى وأن الطبيعة هي من ولدت نفسها وقامت بكل المهام التي تُنسب لله. كما اعتقد أن أصحاب العقول المستنيرة هم من سيُخلّصون العالم من وهم الإله، ويجعلون العلم يحل محل الدين، فالدين لم يوجد إلا نتيجة الخزعبلات والجهل التي حاول الناس بها أن يملؤوا معارفهم الناقصة.

رأى أن فكرة الإله ذاتها غير مصدقة أو مفهومة وأنه مجرد مخلوق خُرافي لا يمكن لعاقل تفهُّم جمعه لكل تلك الصفات المتنافرة والمتناقضة، كما اعتقد أن البشر في البداية أوجدوا العديد من الإلهة ليفسر كل واحد منها ظاهرة من ظواهر الطبيعة التي يأس الإنسان وعجز عن تفسيرها، وفي النهاية أدمجوا كل هذه الآلهة في شخص إله واحد عملاق لم يكن سوى إسقاط لجهلهم وعدم معرفتهم والآن في عصر العقل لم يعد هناك مكان لهذا الإله. أطلق دهولباخ على كتابه هذا (إنجيل المذهب الطبيعي العلمي).

***

أفكار جديدة حول قدرة العقل البشري:

إلا أنه في تلك الأثناء بدأ فكرٌ جديد ذو رؤية مختلفة تمامًا في الظهور حيث بدأ بعض الفلاسفة والعلماء في التشكيك في قدرة العقل البشري أساسًا في الوصول إلى أي يقينٍ، فيما يخصُّ المسائل الميتافيزقية من خلال العقل والعلم التجريبي، فالعقل لا يستطيع التعامل إلا مع يمكن تجربته وملاحظته، وعليه فإننا في كل الأحوال لن نستطيع من خلال ذلك العقل أن نصل إلى أي حقيقة موضوعية عن الله سواء بالإثبات أو النفي.

كان من أبرز هؤلاء المقوضين لقدرة العقل الإنساني الفيلسوف الإسكتلندي ديفيد هيوم والألماني الشهير إيمانويل كانط الذي استطاع أن يصوغ الفكرة ويطورها بشكل ممتاز في كتابه (نقد العقل المجرد).

رأى كانط ومن قبله هيوم أن درجة فهمنا للعالم الطبيعي مرتبطة بشكل كبير جدًّا ببنية عقولنا وقدرتها على الإدراك ونظرًا لمحدودية عقولنا وقصورها، فإنه يستحيل علينا الوصول إلى أية معرفة يقينية مؤكدة ما نُسميه الله فهو خارج متناول حواسِّنا فلا نستطيع إثبات وجوده أو عدم وجوده من خلالها.

إلا أن كانط قد خالف هيوم في استنكاره قدرة الإنسان مطلقًا في التوصل إلى أي معرفة يقينية حول ذلك الإله، حيث رأى أنه وإن كان العقل لا يستطيع إلا إدراك الظواهر الطبيعية فإنه من الممكن أن نستمد إيماننا بوجود ذلك الإله من خلال الضمير والشعور، ففي ضمير الإنسان شعور أصيل بالواجب الأدبي يوحى للإنسان بأن يعامل الناس كما يحب أن يعاملوه وهذا الشعور قد أودعه الإله في النفس الإنسانية. أما هيوم فقد شككّ في قدرة الإنسان إلى التوصُّل إلى أي معرفةٍ حقيقيةٍ على الإطلاق، كما بنى رفضه للفكرة الإلهية على ذات الأسباب التي بنى كانط إيمانه بوجود الإله عليها، حيث رأى أن إيمان الإنسان بالإله لا يمكن أن يكون مبنيًّا على العقل، وأن منبعه الضمير والشعور وهو أمر لا يمكن التعويل عليه، كما رأى أن القيم التي يبني

عليها الضمير إيمانه كالعدل والخير والحق تبدو مناقضةً تمامًا لما يتجلى لنا في هذه الحياة المليئة بالشرور والألم والظلم غير المبرر.

***

ويليام بيلي (جدلية صانع الساعة):

استدعى الكاهن الإنجليزي ويليام بيلي فكرة ديكارت عن الكون الآلي الذي أودع الله فيه قوانينه، وتركه يعمل بدون أي حاجة إلى تدخله، وأن وجود الكون بكل هذه الدقة والنظام دليل على وجود الله. حيث رأى ويليام أن الزعم بأن ذلك الكون على ما به من نظام ودقة وقوانين قد وُجِدَ بلا خالق، كمن وجد ساعة في الصحراء، وافترض أن المصادفة هي من صنعتها. رأى أن المنطق والعقل يفرضان على الإنسان بلا شكٍّ القول بأن الكون قد أوجده خالق مثلما صنع تلك الساعة صانع.

- لاقت أفكار ذلك الكاهن إعجاب معظم المفكرين والعلماء حيث ظل كتابه (اللاهوت الطبيعي) مرجعًا مهمًّا في أغلب الجامعات.

***

الثورة الفرنسية:

- بالرغم من أن دراسة الثورة الفرنسية وتحليلها وفقًا لتسلسل أحداثها توضح أن الظروف الاقتصادية المتردية وتدهور الأحوال الاجتماعية والمعيشية قد كانت في المقام الأول السبب الرئيسي في اندلاع الثورة، ولم تكن قضية الدين بأي حال من الأحوال أحد أسباب قيامها، فإنه قد تم إقحامها بشكل مُبالَغ فيه حتى صارت الفكرة تجد لها حضورًا أو ارتباطًا وثيقًا بالثورة.

- وحتى إعلان حقوق الإنسان الذي صاغته الجمعية الوطنية الذي يعتبره الكثير من المفكرين والمؤرخين حتى اليوم هو مصدر الإلهام للحريات والحقوق في العالم أجمع قد تم وضعه كردة فعل على ما أوجده النظام الاقتصادي من فوارق اجتماعية بين الطبقات، والذي أفرزَ شريحة عريضة من الفقراء وسلبهم الإرادة والاختيار ووضعهم تحت إمرة الطبقة الأرستقراطية.

***

الكنيسة والثورة:

كان استياء الفرنسيين ونقمتهم على الكنيسة مرتبطًا بشكل أساسي بشعور العامة بأن سياسات الكنيسة قد كان لها دور كبير في تدهور الأوضاع الاقتصادية في البلاد، حيث كانت الكنيسة الكاثوليكية أكبر مالك للأراضي في البلاد، فأكثر من 10% من الأراضي الفرنسية كان ملكًا لها، بالإضافة إلى ذلك فقد كانت جميع أملاكها تلك معفاة من الضرائب، بالإضافة إلى ذلك كان للكنيسة الحق في جمع ما يُعرف بـ (العشور) التي تعني إجبار المواطنين على دفع 10% من دخولهم ليعاد توزيعها على الأكثر فقرًا ومن لا دخل لهم، في حين كانت الكنيسة أغنى قطاع في الدولة، ويمكنها مساعدة الفقراء بدون تطبيق هذا النظام المُجحف.

– لكن أكثر ما أثار كراهية الفرنسيين وبغضهم بشكل شديد كان رفض رجال الدين والنبلاء في الجمعية الوطنية للنظام الضريبي الجديد الذي حاول وضعه (جاك نيكر) ذلك المصرفي السويسري الأصل الذي استطاع أن يصبح وزيرًا لمالية فرنسا. حيث كان نيكر يرى أنه إذا تم فرض ضريبة على رجال الدين لا سيما على العقارات التي يديرونها سواء كانت كنائس أو أديرة أو الأراضي أو غيرها من مؤسسات العمل الاجتماعي، فإن ذلك كفيل بأن يُقلّل من عجز الموازنة بقيمة 36 مليون ليفر.

- لذا فعندما قامت الثورة وأعلنت الجمعية الوطنية أن جميع ممتلكات الكنيسة قد أصبحت تحت تصرف الأمة وتم طرح عُملةٍ جديدة في السوق، واستطاعت ممتلكات الكنيسة بالفعل تغطية العملة الجديدة، مما مكّن فرنسا من تجاوُز أزمتها المالية، كما تم إلغاء سلطة الكنيسة في فرض العشور، وأُلغيت القوانين التي تشجع الرهبنة، وتم حلُّ جميع الجماعات الدينية، كما أنشأت الجمعية الوطنية نظامًا جديدًا للكهنة والأساقفة حيث تم اعتبارهم (موظفي حكومة) وحددت أجورهم، كما أصبح الأسقف يُنتخب من قبل مؤمني الأبراشية كخطوة جدية لإعلان انفصال الكنيسة الكاثوليكية عن روما، وإلغاء أي سلطةٍ للبابا عليها.

- لكن الأمور لم تقف عند هذا الحدِّ، حيث تصاعدت فجأة وتيرة الأحداث لتأخذ شكلًا شديد العداء للدين ذاته، سواء من داخل الجمعية الوطنية أو من حركات شعبية، فذُبِح عدد كبير من الكهنة، ودُمرت كنائس وأيقونات في جميع أنحاء فرنسا، ومُنعت المهرجانات والأعياد الدينية، وتم إعلان (ديانة العقل) كخطوة راديكالية أخيرة ضد الدين.

- أصبحت رمزية أن يحل العقل محل الإله رابطًا قويًّا لفكرة الإلحاد بالثورة الفرنسية بصورةٍ تعكس الأمل في عالم أكثر عدالةً ومساواة.

ما بعد الثورة.

شهدت أوروبا بعد الثورة الفرنسية انقسامًا حادًّا حول فكرة الدين والإله ما بين مؤيد للدين العلمي والنظام النيوتني حيث يؤكد العلم وبقوةٍ حضور الله، وبين الرافضين لفكرة الدين والإله باعتبارها رمزًا لكل البشاعات والعنف الذي شهدته البشرية، والآن في عصر العلم لا بد أن ينتهي دور الدين والإله للأبد. فكما رأى (جاك ابير) أحد أبرز قادة الثورة الفرنسية أن (إله العقل) لا بد أن يحلَّ محل الله. ومما لا شك فيه أن الثورة الفرنسية ألهمت الكثير من مثقفي أوروبا ومفكريها، حيث أصبحت رمزًا للحضارة والتنوير والغد المشرق الداعم لقيم العدالة والحرية والمساواة والمرتكزة على العلم والعقل الرافض لكل الخرافات والأساطير والجهل وكل ما ينتمي إلى الماضي.

***

موجة من الصوفية الكونية:

– وفي خضم هذا الانقسام الفكري الذي لم تكن عوام الناس تستطيع التجاوب معه، حيث كانت معظم أفكار هؤلاء الفلاسفة والمفكرين في مجملها عصية على فهم البسطاء واستيعابهم، الذين تسببت لهم تلك الأفكار في الحيرة والتشوش. استلهمَ اللاهوتي الألماني (فريدريتش شلايماخر) من تلك الحيرة مفهوما جديدًا عن الله والإيمان

حيث رأى أن الإيمان المبني على التحليل العلمي لنظام الكون هو إيمان خالٍ من أي معنى أو تجربة روحانية، إيمان لا يمكن للإنسان معه الشعور بالحضور الإلهي. رأى شلايماخر أن الإيمان الحقيقي يستلهم من أعماق النفس لا من تحليل الكون، فالله موجود بشكل أو بآخر في أعماق تلك النفس، وليس مجرد إله مجسد خارج الكون. بل بالغ شلايماخر في التعويل على النفس البشرية بدرجة يمكن معها القول إنه اعتبر حاجة النفس البشرية إلى الله أكبر دليل على وجوده. فهو من يمكننا من فهم أنفسنا.

***

هيجل يعيد صياغة الفكرة الإلهية:

ثم جاء الفيلسوف الألماني الشهير هيجل ليؤكد تلك الفكرة، ولكن بشكل أعمق. فالله كما رآه هيجل ليس كما اعتقد شلايماخر بأنه موجود في النفس البشرية وحسب، وإنما هو (الكينونة الباطنية للعالم)، فأكبر خطأ أن نعتقد أن الله مجرد كائن يتأمل الكون من الخارج ويدبر شئونه. فالله موجود في أصغر ذرة وأكبر مجرة، هو جوهر الإنسان والحياة. وبناء على ذلك رأى هيجل أن أصعب المعاني المسيحية فهمًا على العقل البشري وهو تجسُّد الابن وحلوله في جسد الإنسان لن يعد أمرًا يسهُل على العقل البشري استيعابه بسهولة.

كانت تلك الفلسفة صوفية الكونية تشبه بشكل أو بآخر القبالاة اليهودية. لكن كل هذا لم يكن يعني إيمان هيجل بالأفكار التقليدية القديمة للمسيحية، بل على العكس، كان هيجل يرى أن الدين بكل ما ينتمي فيه إلى الماضي سوف يضعه البشر خلفهم ويمضون قُدُمًا نحو ناظرين إليه على أنه كان مرحلة بدائية من مراحل تطور التفكير البشري الذي نضج.

انهيار اللاهوت العِلمي



تشارلس ليل (الإيمان ليس مبنيًّا على أساس علمي):

في عام 1830 نشر عالم الجيولوجيا الإنجليزي تشارلس ليل الجزء الأول من كتابه (مبادئ ال الجيولوجيا) الذي قال فيه إن هناك الكثير من الأخطاء العلمية حول المعلومات التي ذكرها الكتاب المقدس عن الأرض، فالقشرة الأرضية أقدم بكثير من الستة آلاف عام التي يقول الكاتب المقدس إنها عمر الأرض، كما أنها لم تتشكل مرةً واحدة، بل تشكلت من خلال تأثيرات بطيئة تراكمية للرياح والمياه احتاجت مدة طويلة من الزمان.

– أحدثت آراء ليل واكتشافاته صدمة شديدة في أوساط المؤمنين الذين كانوا قد اعتادوا الربط بين الدين والعلم. أما ليل فقد رأى أن هذه الاكتشافات لا تؤثر في إيمانه المسيحي مطلقًا. حيث رأى أن العلم واللاهوت مبحثان مختلفان، وأن الخلط بينهما غير صحيح على الإطلاق.

روبرت تشامبرز (تاريخ مؤلم للحياة):

ومع تصاعُد الاكتشافات ونتائج الابحاث الجيولوجية والبيولوجية. بدأ عدد من العلماء يحاولون كشف النقاب عن تاريخ الحياة على الأرض عن طريق دراسة الحفريات. وفي عام **1842** نشر روبرت تشامبرز كتابه (آثار التاريخ الطبيعي للخليقة) أوضح فيه أن هناك العديد من القرائن التي تدل على أن الحياة قد تطورت من أشكال (دنيا) إلى أشكال (عليا) كما أن سجل الحفريات المكتشفة يدلل على أن هناك أنواعا لا حصر لها من الكائنات عجزت عن البقاء؛ لذا فنحن لسنا أمام خطة إلهية محكمة، ولكننا أمام صراع من أجل البقاء يوضح أن تاريخ الحياة ما هو إلا ألم ومعاناة وموت وفناء عرقي ونوعي. وأن الغلماء سرعان ما سيثبتون وجود تفسير طبيعي محض لتطور الحياة.

***

أوجست كونت (رائد الفلسفة الوضعية):

وفي ذات العام الذي نشر فيه روبرت تشامبرز كتابه (**1842**) كان الفيلسوف الفرنسي أوجست كانت قد انتهى من نشر الجزء السادس والأخير من كتابه (الفلسفة الوضعية) الذي نُشر أول اجزائه في عام **1830**.

أوضح كونت في كتابه كيف أن العلم لن يظل خادمًا مُطيعًا للدين إلى الأبد، كما كان يعتقد أنصار اللاهوت العلمي، وأن الفكر البشري قد مر بثلاث مراحل كانت أولاها تلك المرحلة البدائية (مرحلة الدين) التي ابتدع فيها الإنسان الآلهة وجعلها مرجعًا وسببًا نهائيًّا لأحداث الكون وظواهره الغامضة فما الآلهة إلا إسقاط لجهل الإنسان البدائي وضعفه أمام ظواهر الكون؛ لذا فقد قدس ذلك الإنسان البدائي البرق والرعد والشمس والقمر، ثم في المرحلة التالية (مرحلة الفلسفة) بدأ الإنسان يطور من الفكرة الإلهية حيث اضفى عليها نوعا من التنزيه حيث جعل من تلك الآلهة إلهًا أحدًا عظيمًا خارج الزمان والمكان وألصق به كل صفات الكمال والعظمة والإجلال، وفي المرحلة الأخيرة (مرحلة العلم) لن يشغل الإنسان نفسه إلا بما يمكن للعقل إدراكه وإثباته تجريبيًّا، فإدراك المسائل الغيبية أمر عصي على العقل الإنساني مهما يبذل في ذلك الجهد والفكر والبحث؛ لذا فالإنسان في تلك المرحلة سيدرك جيدًا أنه ليس أمامه أي غاية يستطيع إدراكها ويؤمن بها غير (السعادة الإنسانية) وتقديس المُثل العليا مثل الخير والحق والجمال، كما أن تركيز الإنسان سيكون مُنصبًّا على اكتشاف حقائق الكون وتسخيرها لخدمته وتحقيق أقصى درجات تلك السعادة المنشودة. إلا أنه بالرغم من كل هذا، فإن (كونت) لم ينكر حاجة الإنسان إلى الله الذي سمّاه (كونت) الكمال المطلق أو اللانهائية التي رأى أن الإنسان وإن كان لا يستطيع بعقله

وعلومه التجريبية إدراكها فإن هناك وسائل أخرى من الممكن التعويل عليها مثل (الضمير).

***

الربيع الأوروبي (ثورة 1848):

شهدت أوروبا الغربية تحولًا غير المسبوق في النظام الاقتصادي الذي كانت نواته الثورة الصناعية التي انطلقت من إنجلترا وامتدت إلى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وهولندا.

فبدلًا من الاعتماد مثل جميع نظم الاقتصاد قبل الحديث على فائض من الإنتاج الزراعي وبعض الصناعات اليدوية المميزة التي كانوا يتاجرون بها لكي يمولوا إنجازاتهم الحضارية.

- قام الاقتصاد الحديث على الاستنساخ التكنولوجي للموارد وإعادة الاستثمار السريع لرأس المال، وأصبح إقامة البنى الأساسية وتفعيل الأفكار والمشاريع الجديدة سمتًا أساسيًّا لهذا الاقتصاد الحديث، كما عرف العالم أسواق الأسهم والسندات والبنوك.

- صاحب هذا التحوُّل الاقتصادي طفرة كبيرة في المجالات العلمية كافةً، وأصبح للاكتشافات والأبحاث العلمية والاختراعات قيمة كبيرة في تطوير ذلك الاقتصاد وزيادة الإنتاج. وبدأ العلماء يدركون مدى ترابُط المباحث العلمية وتشابكها وتأثيرها في بعضها

البعض، أنتجت تلك الطفرة اختراعات في شتى مناحي الحياة... من التليسكوب.. وحتى الصحافة.. وتجلت عظمتها في (صناعة الآلات والماكينات) وتطويرها.

كانت الثورة الصناعية قد تسببت في الثراء الفاحش للطبقة البورجوازية بشكل غير مسبوق، بينما أضحت طبقة العاملين في أنحاء أوروبا تعيش في بؤس وفقر شديد، حيث يكدح العامل لساعات طويلةٍ يوميًّا وصلت لخمس عشرة ساعة مقابل أجر زهيد لا يمكنه من توفير أبسط سُبل العيش، كما قبع كأمثاله من البائسين في أحياء عشوائية تنتشر فيها الأمراض والأوبئة. كما تراجعت قدرة صغار الصناع من أصحاب الحرف اليدوية على مُجاراة الكيانات الصناعية العملاقة ذات الإنتاج الوفير والسريع والأشد دقة وأكثر جودة فتدهورت أوضاعهم بشكل كبير. أما الفلاحون في الريف فلم يكن وضعهم بأحسن حالٍ من عمال المدن. وهو ما أدَّى إلى ثورة العمال والفلاحين في عدد من مدن أوروبا على النبلاء والرأسماليين والإقطاعيين فيما عرف ب–الربيع الأوروبي.

–– كانت نواة تلك الثورات ما عرف ب– (المذابح الجاليكية) التي جرت في بولندا عام **1846** حيث ثار الفلاحون بسبب تدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي أدت إلى استحالة المعيشة، وقاموا بارتكاب مجازر بشعة في حق النبلاء والإقطاعيين، ثم امتدت إلى باريس وبرلين، حيث ثار العمال والفلاحون.

أفكار جديدة ذات بعد اجتماعي:

- أدت تلك الثورات رغم فشلها إلى ظهور العديد من المذاهب الفكرية التي تحاول تأكيد أهمية البُعد الاجتماعي للاقتصاد مثل الاشتراكية واللبرالية الاجتماعية، في بداية القرن التاسع عشر لم تكن لفظة اشتراكية تُستخدم كمصطلح مضادٌ للرأسمالية، وإنما كانت تُستخدم للتعبير عن المشكلات الاجتماعية للرأسمالية. ثم تطورت الفكرة على يد عدد من المفكرين الفرنسيين والإنجليز أمثال سان سيمون وشارل فورييه وروبرت أوين، ومع قيام الثورة استدعى المثقفون أفكار سان سيمون الداعية إلى تدخل الدولة في الصناعة وإلغاء الميراث وانتقال الثروة بعد الوفاة إلى الدولة وإقامة العدل والمساواة بين الناس. بالإضافة إلى أفكار شارل فورييه الذي كانت يدعو إلى الاتحاد في الإنتاج عن طريق المشاركة الاختيارية حيث تصور تأسيس مدينة تُدار على شكل هيئة تعاونية يعيش أفرادها في بناء مشترك، ويختصُّ كل منهم بعمل معين طبقًا لذوقه من أجل الإبقاء على حياة الجماعة، وهذا في رأيه سيؤدي إلى زيادة الإنتاج.

- عُرفت تلك التجارب فيما بعد بالاشتراكية الخيالية كما سماها إنجلز وماركس.

- روبرت أوين..

(يعطى الاشتراكية الخيالية بعُدا دينيًّا وتجربة تطبيقية):

كانت أبرز تجارب تلك الاشتراكية الخيالية قد تجسَّدت على يد الإنجليزي روبرت أوين الذي هاجر إلى أمريكا واستقر في ولاية أنديانا حيث أسس مستعمرة نيو هارموني التي سعى من خلالها إلى إنشاء مجتمع جديد قائم على النظام التعاوني يعمل كل أفراده معًا، كلٌّ على قدر طاقته مع إلغاء الربح وهو ما يستدعي إلغاء النقود... مجتمع قائم على العدل والمساواة بين الجميع. كان أوين يرى أن الإنسان لم يختر حياته ولا شخصيته، وإنما هو نتاج موروثاته الثقافية والمجتمعية، كما أن كل الأديان تعتمد على نفس التصورات السخيفة التي تجعل من الإنسان ضعيفًا أو حيوانًا أبله أو متعصبًا غاضبًا أو منافقًا بائسًا.

***

كارل ماركس وإنجلز:

– عندما انتقل الفيلسوف والاقتصادي الألماني كارل ماركس إلى باريس في 1844 التقى ب– (فريدريك إنجلز) حيث نمَّت بينهما صداقة قوية. كما استطاعا أن يكونا نهجًا فكريًّا ورؤية مشتركة حول عدد من القضايا الكبرى كالسياسة والاقتصاد والدين والتاريخ

والمجتمع. شرعا معًا في صياغة ما أسموه (الاشتراكية العلمية) والفكر الشيوعي من خلال تأليف مجموعة من الكتب كان أشهرها البيان الشيوعي (المانفيستو). أما عن رأيهما في الدين فقد كانا يعتقدان أن الاقتصاد (العوامل المادية) هي المحرك الرئيسي لكل أحداث التاريخ، فمنذ فجر التاريخ وحتى اليوم كانت العلاقة بين البشر هي علاقة صراع بين المُستغِل والمُستغل سواء كان هذا في صورة استغلال الإنسان للإنسان أو استغلال أمة لأمة أخرى. فالفئة التي تتحكم في كل وسائل الإنتاج (الأغنياء) لا تتحكم فقط في إنتاج السلع والأغذية، وإنما تتحكم أيضا في إنتاج (الأفكار) التي تخدم مصالحهم ومن تلك الأفكار (الدين)، فالدين ما هو إلا وسيلة ابتكرها الأغنياء ليخدعوا بها الفقراء (الطبقة العاملة) ليغرقوهم في أوهام الفردوس ويبقوهم في العبودية حتى لا يثوروا أو يحاولوا تغيير وضعهم المؤلم حيث يضع تفسير لمعاناتهم وآلامهم، ويمنحهم السكون والرضا بذلك الواقع المرير، فالدين ما هي إلا مخدر. لذا فقد آن الأوان أن يستفيق الإنسان من ظلمات الدين ليشقَّ طريقه نحو سعادته الحقيقية بعيدًا عن ذلك الإله الذي سلبه أبسط حقوقه.

- (إن هدم الدين لأنه يمثل سعادة وهمية للشعوب، إنما هو من مقتضيات سعادته الحقيقية)

- (إن الدين فارغ بحد ذاته، إنه من الأرض يعيش لا من السماء، فإذا انحلّ الواقع الغاشم الذي يشكل الدين نظريته، سينهار الدين من تلقاء نفسه).

- (إن نقطة التحول الكبرى في التاريخ ستكون اللحظة التي يعي فيها الإنسان أن الإله الوحيد هو الإنسان ذاته). كارل ماركس.

***

تشارلس داروين (لا توجد خطه إلهية):

في عام 1859 نشر تشارلس داروين كتابه الشهير (أصل الأنواع بوسطة الانتقاء الطبيعي) الذي دوَّن فيه ملاحظته التي جمعها خلال رحلته على متن السفينة بيجل التي استمرت خمس سنوات بغرض دراسة الحياة الحيوانية والنباتية والخصائص البيئية والجيولوجية ومسحها للعديد من الجزر في المياه الجنوب أمريكية التي خلص من خلالها إلى عدة نتائج، كان أهمها أنه لا توجد خطه إلهية وأن الحياة لم توجد علي الصورة التي نعرفها اليوم، فالكائنات الحية قد تطورت ببطء على مر الزمان، وهي تحاول أن تتكيف مع بيئتها، وفي أثناء تلك العملية، هلكت أنواع لا حصر لها من الكائنات، لأنها لم تستطع التكيف مع البيئة من حولها كان داروين متأثرًا في آرائه حول التطور بأفكار جده (أرازموس داروين) وكتاباته الذي كتب العديد من

المؤلفات العلمية والأشعار المبنية على فكرة التطور مثل (الحديقة النباتية) و(علم أصول الحياة الحيوانية) و(معبد الطبيعة) بالإضافة إلى اطلاعه على أفكار (جان باتيست لامارك) وكتابه (فلسفة علم الحيوان) الذي يعد أول كتاب علمي يفرد لمسألة التطور. كما حازت أفكار (ألفرد راسل والاس) عن التطور إعجاب داروين وأحس أنها تتطابق مع أفكاره، لذا فقد ضمن داروين العديد من أفكار والاس وملاحظاته التي أرسلها له في كتابه (أصل الأنواع). بالإضافة إلى اطلاعه على أفكار روبرت شامبرز حول تطور الحياة من أشكال (دنيا) إلى أشكال (عليا)، وعن غياب الخطة الإلهية، وكون الحياة مجرد صراع من أجل البقاء. وأفكار ديدرو حول بقاء الأصلح.

***

مراجعات ومقالات:

لا يعرف الكثير من الناس أنه عندما نشر تشارلس داروين كتابه (أصل الأنواع) لم يثير تلك الضجة التي نراها اليوم حول الكتاب ولم تكن أفكاره حول (التطور) الضربة القاضية التي وُجِّهت للدين كما يحاول كثيرون تصوير ذلك. فبرغم أنه أول مَن استخدم مصطلح (التطور) كما أنه بلا شك يعتبر أكثر معاصريه تناولًا للفكرة بالدراسة والبحث فقد كانت معظم مؤلفاته تقريبًا حول التطور إلا أنه كما

سبق أن ذكرنا لم يكن داروين هو أول من تحدث عن التطور، فهناك عدد من الفلاسفة والعلماء الذين تناولوا نفس الفكرة، وإن كان بتعبيرات أخرى أقل دقة مثل (التحول أو التغير). إلا أن فكرة التطور في حدِّ ذاتها لم تتسبب في إلحاد الناس سواء عندما طرحها داروين أو أيٌّ ممن سبقوه، بل إن داروين ذاته ظلت تراوده الشكوك حتى وفاته، وصرح لابنته أنه لم يلحد، ولكنه يعتبر نفسه لا أدريًّا، وبالمثل لم تشكل الفكرة أى مشكلة لدى العلماء والمثقفين المسيحيين. كنت لدى معظمهم قناعة بإمكانية تقبل النظرية إذا ثبت أنها حقيقة علمية بدون أن يدفعهم ذلك إلى رفض الله أو الدين حتى أن ألفرد راسل والاس نفسه لم يستطع أن يتصور عدم وجود ذكاء أعلى أدار عملية التطور تلك، كانوا على استعداد لتقبُّل الفكرة والتفاعُل معها مع الاحتفاظ بإيمانهم. أما عامة الناس فلم تشغلهم الفكرة بالأساس، ولم يتأثر إيمانهم أو يهتز بسبب تلك الأفكار العلمية الجديدة حيث كانت معظم تلك الأفكار عصية فهم على عقول البسطاء، ولم تكن محل اهتمام إلا للمثقفين فقط.

- كانت اللحظة الفارقة فعليًّا التي سمحت لكل الأفكار العلمية والفلسفية التي تجابه الدين أن تحظى باهتمام العوام وتسيطر على تفكيرهم ومناقشاتهم عندما قام سبعة من رجال الدين الإنجليكانيين في العام التالي لنشر كتاب داروين أي عام **1860** بنشر كتاب يحمل

اسم (مقالات ومراجعات) الذي كان عبارة عن مجموعة من مقالات النقد الأعلى للإنجيل، وكانت هذه أول مرة يُتاح فيها للعامة قراءة شيء عن نقد الكتاب المقدس.

– ركّز الكتاب على تحليل عدة نقاط رئيسية كانت صدمة للعامة الاضطلاع عليها (أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، وأن داود لم يكتب المزامير، وأن المعجزات الإنجيلية للمسيح ما هي إلا حكايات رمزية، والأهم من ذلك كله أن الكتاب المقدس يجب أن يخضع للدراسة النقدية التي يخضع لها أي نصٍّ تاريخي قديم خاصةً فيما يخص الوقائع التاريخية التي يذكرها للتأكد إذا ما كانت مجرد أساطير من وحي خيال مؤلفيها أم أنها أحداث قد وقعت بالفعل بالإضافة لضرورة المراجعة الدقيقة للمعلومات التي يذكرها الكتاب المقدس حول الحياة والكون والتأكد مما إذا كانت مطابقة للحقائق والاكتشافات العلمية أم لا).

– أحدث الكتاب ضجةً كبرى فما حققه الكتاب من مبيعات في العامين الأولين لنشرة كان أكثر مما حققه كتاب (أصل الأنواع) في الواحد والعشرين سنة التالية لصدوره. كما صدر أكثر من 400 كتاب ومقالة تُناقش جميعها الأفكار التي طرحها الكتاب.

– غيرت استنتاجات (مقالات ومراجعات) من معطيات الصراع بين المناصرين للدين والمتعصبين للعلم. فالأفكار التي يطرحها الكتاب

بالإضافة إلى أفكار ليل وداروين حول عمر الأرض وأصل الحياة تسمح بوجود تفسير علمي يُجابه ذلك التفسير الذي وضعه نيوتن ومن سار على دربه من العلماء اللاحقين له، الذي كان قد جعل من وجود الله ضرورة علمية، فالإلحاد الآن ولأول مرة أصبح له أدلة علمية ومراجعات دينية تدعمه وتؤيده. ولم يعد مبنيًّا على مجرد قناعات فلسفية أو استنتاجات فكرية ناقمة على رفض بشاعات ارتُكبت باسم الدين والإله أو عدم الفهم لتجربة الحياة القاسية ووجود الشر والظلم أو عدم إدراك الهدف والغاية من وجود الحياة أو لكون الدين ينتمي للماضي؛ لذا فمن الطبيعي أن يثور عليه العقل ويرفضه.

***

اللا أدريه (تومس هاكسلى):

- وبقدر غير قليل من الحيرة شعر العديد من المثقفين والمفكرين بأنه لم يعد هناك سبيل للوصول لإجابة قطعية أو معرفه يقينية حول وجود الله أو عدم وجوده من خلال الأدلة المادية المتاحة أمامنا في الكون المنظور، لذا فعلينا أن نعترف أن العلم عاجز حيال ذلك الموضوع.

- كان على رأس هذا التيار الفكري العالم البيولوجي البريطاني (توماس هاكسلي)، رأى هاكسلي أن الذين يكرسون لفكرة (الإلحاد العلمي) يعتمدون بالأساس وبشكل مبالغ فيه على أفكار ميتافيزقية (غيبية) ويدعمونها بأدلة علمية غير كافية مثلهم مثل رجال الدين المؤيدين لفكرة وجود الله.

- لذا فما دمنا لا نستطيع أن نثبت أو ننفي وجود الله بشكل علمي قاطع فإن القول بـــأننا (لا ندري) هو المنهج المناسب لاستخدامه في مناقشة الأمور الغيبية بشكل عام. حاول هاكسلي أن يصوغ فكرته في قاعدة مفادها أنه (في الأمور العقلية لا نحاول إظهار الاستنتاجات غير المثبتة أو غير القابلة للإثبات على لأنها استنتاجات يقينية). على كلٍّ رأى أنصار هذا المذهب أن (اللا أدريه) هي المنهج الوحيد الذي يتخذ موقف عقلانيًّا ومحايدًا بين طرفي التراع (الدين والعلم) إلا أن هذا لم يكن صحيحًا حيث لم يبتعد اللا أدريين كثيرًا عن موقف المناصرين للعلم من الدين والإله. حيث رأوا أن هذا الصراع لن ينتهي إلا عندما يقرر الناس أن يختاروا إما أساطير الدين وإما حقائق العلم المثبتة، إذ ليس هناك حلول وسط.

- وبناء على ذلك كله فقد كان هاكسلي يرى أنه ليس من العقل أن نبدد الوقت والجهد في دراسة أي موضوع غيبي ونقده، لأنه لم تعد هناك جدوى أو قيمة لذلك. كما أننا لا يمكن أن نتخلى عن العلم

الذي أصبح رمزًا للتقدُّم، من أجل الدين الذي ينتمي إلى العالم القديم بكل ما يحويه من أساطير ورجعية؛ لذا فلزامًا عليه أن يختفي.

***

إعادة صياغة تاريخ العلاقة بين (الدين والعلم):

- في تلك الفترة أقدمَ العديدُ من المناصرين للعلم الرافضون للدين على إعادة صياغة الأحداث التاريخية لعلاقة الدين بالعلم.

حيث حاولوا إظهار أنه على مرِّ التاريخ قد كان هناك دومًا صراع بين الدين المليء بالخرافات والأساطير التي تجذب الإنسان دائمًا إلى الرجعية والتخلف وبين العلم الذي طالما دفع الإنسان نحو التقدُّم والرُّقي والسعادة الحقيقية للإنسان.

- قاموا بتصوير العلماء والمفكرين والإصلاحيين أمثال جاليليو ولوثر على أنهم أبطال مناضلون، ضحوا بحياتهم لمواجهة الرجعية والتخلف التي كان يمثلها رجال الدين الأشرار المتعصبون.

- فمثلًا نجد الخطيب والمحامي الأمريكي وأحد قادة الحرب الأهلية الأمريكية الذي لقَّبه البعض ب- (الملحد العظيم) بينما قال عنه آخرون أنه (المتحدث الرئيسي باسم اللا أدرية) (روبرت جي أنجرسول) قد حاول أن يوضح كيف قام أولئك الفرسان بحمل مشاعل العلم والتنوير في مواجهة محاولات فرض الخوف والعبودية

العقلية والتعصب التي قام بها رجال الدين الموهمون الذين يظنون أن صلواقم تجلب الخير مثلما تظن الضفادع أن نقيقها يجلب الربيع. كان انجرسول دائمًا ما يردد (انفني من الجنة إذا أردتَ لكن اسمح لي أولًا أن آكل من ثمار شجرة المعرفة).

– أما جويل مودي فقد قام بإلقاء الضوء على تلك المعاناة التي لاقاها أهل الفكر والعلم في مواجهة هؤلاء المجانين الذين يحترقون شهوة لله.

بينما قام (جون ويليام درايبر) رئيس قسم الطب بجامعة نيويورك بنشر كتابه (تاريخ الصراع بين الدين والعلم) الذي صدرت منه خمسين طبعه وتُرجم إلى عشر لغات. والذي حاول درايبر أن يوثق فيه كيف كان الدين دائمًا يتمسك بحقائق التنزيل التي لا تتغير وما نتج عن ذلك من جمود حضاري وفكري في الفترات التاريخية التي تسيَّد فيها الدين ورجاله مقاليد الأمور. بينما حاول العلم في كل فرصة أُتيحت له أن يخطو بالإنسانية خطوات سريعة وكبيرة نحو الأمام وما زال أمامه الكثير ليقدمه من الاكتشافات والاختراعات التي منحت الإنسانية مزيدًا من الرُّقي الحضاري والتقدُّم.

– فيما ذهب الفيلسوف الإنجليزي (جون ستيورت ميل) إلى القول بأن ضلالات العقيدة (تصادق على نصف الأوهام المؤذية التي يسجلها التاريخ). وإن الركون إلى حقائق الدين وثوابته سذاجة وجهل (أعطني زوبعة وعاصفة الفكر والفعل بدلًا من هدوء الجهل والإيمان المميت).

- نيتشه (هكذا تكلم زرادشت):

في عام 1883 كان الفيلسوف الألماني فريدرك نيتشه قد انتهى من تأليف كتابه (هكذا تكلم زرادشت) الذي اعتبره أهم أعماله و إنجيله الخاص، حيث يروي في الكتاب قصة النبي الإيراني زرادشت الذي نزل من محرابه في الجبل بعد سنوات من التأمُّل ليدعو الناس إلى الإيمان بـ (الإنسان الأعلى) (السوبر مان) بدلًا من عبادة الإله الذي قد مات، وفي أثناء سير زرادشت يرى رجلًا عجوزًا يصلي ويدعو الله فيستغرب، ويقول (أيعقل أن هذا الرجل لم يعلم بأن الله قد مات و أن جميع الآلهة قد ماتت)، ثم يواصل سيره فيرى في طريقه الناس وقد تجمعوا لرؤية رجل يلعب على حبل عالٍ، ولكنه في النهاية يقع، فيذهب إليه زرادشت ويخبره أنه أفضل من جميع الذين كانوا يشاهدونه، ولأنه يجرب ويخاطر في قوة وشجاعة ورجولة. حاول نيتشه في تلك القصة أن يعبر عن حال معاصريه وموقفهم من الله، حيث رأى نيتشه أن إله المسيحية قد أصبح غير معقول عند أغلب الناس، لذا فهو قد مات عند أغلبهم، ولتعويض الفراغ الذي أوجده موت الإله داخل نفوس البشر عليهم أن يجعلوا من أنفسهم آلهة بأن يسقطوا على أنفسهم كل الصفات التي كانوا قد منحوها ذلك الإله الخارجي، والتي بموجبها وضع حدودًا على عقول البشر وطموحهم. وأشعرنا بالخوف والخجل من رغبات أنفسنا وأجسادنا وشهواتنا. بيد

أن نيتشه لم يكن مُقدِّرًا لما قد تؤول إليه الأمور حين تستجيب الإنسانية لنزعاتها ورغباتها وشهواتها حين تصبح تلك الرغبات هي المحرك الأساسي والمعنى النهائي للوجود -حين يصبح الإنسان هو الحقيقة الأسمى التي لا يعلوها شيء؟

***

- سيجموند فرويد (يضرب آخر مسمار في نعش الدين):

كان من أبرز المعاصرين لنيتشه ممن عبروا عن تغير نظرة أبناء عصره للدين والإله التي تحدث عنها نيتشه الطبيب النمساوي اليهودي الأصل سيجموند فرويد الذي يعتبره كثيرون أبا علم التحليل النفسي المعاصر.

– يظن البعض أن فرويد أصبح ملحدًا نتيجة لدراساته ومحاولته تحليل السلوك البشري، لكن الحقيقة أنه لم يُقدِم على ذلك إلا كي يتسنى له التعرُّف إلى الأسباب والدوافع التي تُحرِّك الإنسان وتحكم سلوكه والتي دفعته إلى اختلاق فكرة (الإله) و(الدين) وغيرها من الأفكار والسلوكيات التي حاول فرويد إيجاد تفسير لها. لذا ففرويد أصبح مُحلّلًا نفسيًّا بدافع من إلحاده وليس العكس.

– درسَ فرويد الطب في جامعة فيينا، كما أنه كان لديه اهتمام كبير بالدين، لكن دراسته وأفكاره واستنتاجاته حول الدين كانت

بالأساس مبنية على اعتقاده بأنه ليس هناك إله.

– اعتقد أنه في المستقبل القريب سوف ينتهي وللأبد اعتقاد الناس في الآلهة والعبادة، وما إلى ذلك من الأمور الغيبية، ولكنه من الخطر محاولة فرض الإلحاد أو محاولة إجبار الناس عليه قبل الأوان. كما كان يرى أنه ليس هناك حاجة لتبريره لإلحاده لأنه حقيقة بديهية لا تحتاج إلى أي إثبات. كما انتهى فرويد من دراسته في علم النفس إلى أن الدين مرض عصبي يقترب من الجنون.

– ويمكن القول إن أفكار فرويد عن العقيدة ونشأتها لا يختلف كثيرًا عن معظم الفلاسفة الذين يردُّون ظهورها إلى فكرة ضعف الإنسان أمام مظاهر الكون، بالإضافة إلى جهله وعدم قدرته على تفسير الظواهر الطبيعية؛ مما دفعه إلى ابتداع وجود قوة كبرى في هذا الكون تحميه وافتراضها، وتساعده في مصائبه وبلواه.

– ففي كتابة (مستقبل وهم) يرى فرويد أن الإنسان عندما يكون طفلًا صغيرًا فإنه يعتمد على أبيه الذي يمثل له الحماية والرعاية من كل ما يحيط به فإذا كبر أدرك أن عليه أن يواجه الحياة والطبيعة وحده، لذا فقد بحث الإنسان لنفسه عن قوة يكسوها زي الأبوة وهي تلك الآلهة التي ستحقق له الحماية والرعاية في هذه الغربة الوجودية التي يحيا فيها.

- بالإضافة إلى ذلك فقد أعطى فرويد تفسيره لظهور فكرة العقيدة بُعدًا غرائزيًّا محضًّا حيث كان يعتقد أن النفس الإنسانية ما هي إلا مجموع الحوافز الحيوانية كالجوع والخوف والغضب والجنس... وما إلى ذلك الحوافز، وإن حافز الجنس هو الذي يتصدر كل هذه الحوافز، لذلك فقد اقترح فرويد في كتابه (الطوطم والمحرم) أنه في العهود الأولى للإنسان كان كبير العائلة أو القبيلة (الأب) هو من له الحق وحده في كل الإناث، لذلك فقد نشأة عداوة شديدة بينه وبين أبنائه فقاموا بقتله، ولشعورهم بالندم والتأنيب الضمير حيال ذلك أصبحت لذكرى هذا الأب مكانة وتقديس في نفوس أبنائه الذين زادت رغبتهم في تخليد ذكراه. ومع مرور الوقت أسقطوا ذلك التقديس على أحد الحيوانات المرهوبة لديهم، وزعموا حلول أبيهم هذا في فيه، ثم تطورت الفكرة عبر مرورها بمراحل كثيرة لتصل لأعلى درجات التتريه في أديان التوحيد التي تتره الإله عن التجسد وترفعه فوق مستوى إدراك البشر في السماء. كان ذلك جزءًا من محاولة فرويد أن يرد تفسير السلوك الإنساني كاملًا للغريزة.

***

الوجه القبيح لعصر العلم



كانت الحروب الكارثية الكبرى التي توالت بداية من الحرب الأهلية الأمريكية ثم الحرب الفرنسية البروسية وحتى الحرب العالمية الأولى ثم الثانية التي قُتل فيها وحدها ما يزيد عن 60 مليون إنسان، قد كشفت عن الوجه القبيح لعصر العلم وتطبيق العلوم الدقيقة لإنتاج أسلحة فتاكة ومدمرة. أوضحت كيف أن إنسان عصر العلم أكثر بربرية ووحشية وتعطشًا لإراقة الدماء ولعقها من الإنسان البدائي الأول الذي سكن الغابات والكهوف ذي المعرفة القاصرة الذي امتلأ عقله بالجهل والخرافات والأساطير.

- فبالرغم من استبعاد الدين وتنحيته جانبًا فإن ذلك لم يجنب البشرية ويلات الحروب والبشاعات التاريخية التي طالما رأى أغلب مفكري وفلاسفة هذا العصر أن الدين كان هو المسؤول الأول عنها. حيث أفرزت الأيديولوجيات المادية هي الأخرى نفس نزعات التدمير

والخراب والقتل، وأثبتت أن هناك فرسانًا لعصر العلم مثلما كان هناك فرسان يقتلون باسم الرب، أوضحت تلك الفترة التاريخية أن الأمر لا يتعلق إلا بالإنسان ذاته بأطماعه وشهواته ورغبته في التملُّك والتسلُّط على كل شيء ولو على حساب غيره من البشر وإن اختلفت الوسيلة وتغيَّر الشعار الذي يستتر وراءه تلك الغايات، سواء كان هذا الستار (الدين) أو أي شيء آخر.

- كما أبرزت تلك الفترة ما آلت الأمور عندما استغنى الإنسان عن القيم الأخلاقية وكرَّس للإنسان السوبر مان الذي بشَّر به نيتشه وبرَّر دوافعه فرويد حين رأى أن التروع البشري للموت لا يختلف كثيرًا عن رغبته في الإنجاب والتكاثر، في حين اعتبر البعض أن تلك الحروب ضرورة داروينية لا يُكتب البقاء فيها إلا للأصلح. كما أبرزت كيف أن كل ذلك التقدُّم والرُّقي لم يحقق للبشرية الجنة والسلام على الأرض التي بشَّر بها من رأوا في خلاص العالم من الدين سبيلًا لها. كيف انزلق إنسان عصر الرُّقي والتقدُّم في مُستنقعات ذلك الوحل اللا أخلاقي؟ كيف انتاب إنسان عصر العصر العقل والتنوير هذا الهوس والانتحار الجماعي غير الواعي الذي قتل أجيالًا كاملة بدون أي سبب اجتماعي أو أيديولوجي أو إنساني كافٍ؟

اليقين الموضوعي:

في مطلع القرن العشرين سادت موجة من الأفكار العلمية حول إمكانية التوصل إلى يقين موضوعي يكشف ماهية العالم ويحل أسراره وألغازه، وبدأ الكثير من العلماء يبشرون بإمكانية الوصول إلى هذا اليقين العلمي الذي سيجد الإنسان فيه سلوى وعوضًا عن فقدانه اليقين الإلهي. رأى المتفائلون أن العلم لم يعد أمامه سوى بعض المسائل التي سرعان ما يصل العلم إلى حقيقتها، وعندها ستكتمل معرفتنا بالكون ويصبح العالم لنا كتابًا مفتوحًا.

- إلا أن تلك الأحلام حول اليقين ما لبست أن تبددت، إذ أثبتت كل الاكتشافات العلمية الجديدة أن معرفتها عن الكون محدودة وغير مكتملة إلى حدٍّ كبير كما كان يفترض هؤلاء.

***

أينشتاين والفيزياء الكونية:

شَهِدَ مطلع القرن العشرين ثورةً في علم الفيزياء، حيث طرح علماؤها العديد من الاكتشافات والنظريات العلمية الجديدة والتي جاءت مغايرة للعديد من المفاهيم الفيزيائية التي كان العلماء قد تبنوها بناء على النظام النيوتيني للكون، حيث طرح علماء أمثال ألبرت

ميكلسون وإدوارد مورلي أفكارًا حول انجراف الأثير، وسرعة الضوء، ثم اكتشافات ألكساندر – إدموند بكريل للنشاط الإشعاعي ثم آراء ماكس بلانك حول عزل الظواهر الكمية، ثم جاء أينشتاين ليطبق نظرية الكم لماكس بلانك كما صاغ نظرية النسبية الخاصة في عام 1905 ثم النسبية العامة في 1916 كما طوَّر نيلز بور وفرنر هايزنبرج ميكانيكا الكم.

– غيَّرت كل هذه الأفكار من نظرتنا إلى العالم، فالكون الآن لم يعد كتابًا مفتوحًا، بل عاد لُغزًا غامضًا لا يستطيع أكثر الناس تفهم ظواهره، فالعِلم الآن يخبرنا بأن الكون ليس أزليًّا على صورته تلك كما أن الكون قد نشأ بفعل انفجار كبير... ترى ما الذي قد سبقه؟ وكيف حدث؟ كما أنه في توسُّع دائم، ولكن على حساب ماذا؟ أضف إلى ذلك ما تقوله الكمياء عن أن الذرات ليست مجرد قوالب مصمتة بل إن بها فراغات ومساحات وإلكترونات تدور حول النواة كما تدور الكواكب حول الشمس. إن العالم الآن عصي على الفهم أكثر من أي وقت مضى.

***

النسبية تُعيد صياغة العالم:

- من السهل تفهم حيرة الناس وقلقهم من الأفكار الفيزيائية الجديدة لكن ما بدا مُستغربًا هي الطريقة التي تم بها التعامل مع أفكار أينشتاين وخاصة فكرة النسبية.

فبرغم أن النظرية النسبية قد كانت نظرية علمية بحتة لا تحوي بين طياتها أي أفكار أيديولوجية فإن التقدميين قد استلهموا من النسبية أشياء ربما لم تكن لتخطر على بال أينشتاين ذاته، حيث اعتُبرت النسبية أيديولوجية وفكرًا يدلل بكل قوة على أنه لم تعد هناك أي ثوابت أو مُسلّمات، فالعلم الآن يبرهن على أن كل شيء في هذه الحياة نسبي حتى القيم والأخلاق والمبادئ وحتى الدين.

كل شيء في هذا العالم يتغير فالكون الذي كان يبدو مفهومًا صار غامضًا مجهولًا.. الماركسية زعزعت الرأسمالية.. الإلحاد العملي خارت ركائزه مثلما خارت ركائز الدين العلمي من قبل.. تبدلت كل المرجعيات الثقافية حيث تغير الرسم النحت على يد بيكاسو والتكعيبيين، وتغير الأدب بواسطة دادا والسرياليين حتى الموسيقى ظهر منها أنواع جديده لأشكال وأنماط لم تعرف من قبل كالموسيقى الانطباعية والسريالية وموسيقى التنافُر الحر وما عرف بفن الضجة، أما علم النفس فقد تغيَّر بفضل فرويد اتباعه من أنصار مدرسة

التحليل النفسي، لا شيء يدوم، وكل ما هو قديم أخذ في الانهيار لكي يولد مكانه ما هو قادر على البقاء.. لذا فإذا أردنا أن نخطو نحو الأمام، فلا بد أن نتخلى عن كل ما هو مطلق ومُسلَّم به فتلك الثوابت تعد عقبة أمام تحرر المتقدمين وحماستهم.

- بيد أنه وكما ذكرنا من قبل فإن أينشتاين ونسبيته كما كان سلاحًا ودرعًا للتقدميين، كانا أيضا بالمثل للمحافظين حيث اقتبسوا بحماسة تعليق أينشتاين الشهير أثناء حواره في بروكسل عام **1927** (على الرغم من أن ميكانيكا الكم تحوز بالتأكيد الإعجاب إلا أنه ثم صوت داخلي يخبرني أنها.. لا تقربنا على الإطلاق من سر (الكائن العجوز) إنني على أية حال مقتنع أنه لا يقامر عشوائيًا) وهكذا توالت استنتاجات المحافظين عن النسبية.

رأى عالم الفلك البريطاني آرثر ستانلي أديتجنون في النسبية قرينة على وجود عقل في الطبيعة، كما أوضح عالم الفيزياء الأمريكي برسي بريد جمان أن بنية الطبيعة تتغير بشكل لا تستطيع عمليات فكرنا التجاوب معها بالدرجة التي تتيح لنا فهمها (إننا نواجه شيئًا يتحدى الوصف والفهم بالفعل) كما رأى كثيرون في (الانفجار العظيم) الذي أدى إلى وجود الكون الذي إلى اليوم لا يوجد له تفسير إلا من خلال بعض الافتراضات غير المدعومة بأي دلائل علمية رأوا فيه دليلًا قاطعًا على وجود خالق ابتدأ بوجوده الكون.

كما اعتقد بعض المتحمسين أن نسبية الزمان تبرهن على مصداقية الحياة الآخرة في حين ذهب آخرون إلى أبعد من ذلك، فاعتبروا أن لا حتمية ميكانيكا الكم تدعم فكرة تحكم العناية الإلهية في العالم.

- كانت كل تلك الآراء التي اتخذت من النسبية مرجعية لها صادمة للغاية حتى لأينشتاين نفسه حيث كتب في عام **1926** أي بعد ستة عشر عامًا من نشره لنظريته (أعلم أن الكلم (النسبية) كانت سيئة الحظ، وأنها تتيح الفرصة لخلافات فلسفية.. لكني أعتقد أنه بعد كل هذا الزمن فإن تغيير اسم مقبول بشكل عام قد يسبب ارتباكًا).

***

كارل بوبر:

في ثلاثينيات القرن العشرين برزت كتابات الفيلسوف الإنجليزي النمساوي اليهودي الأصل كارل بوبر الذي، اعتبر أهم مُفكري جيله بل إن عددًا لا بأس به من المثقفين في وقتنا الحاضر يرون أنه أهم مفكري القرن العشرين على الإطلاق. كان بوبر منهمكًا بدراسة فلسفة العلوم، أما عن رأيه في الدين فقد كان بوبر لا أدريًّا كما اعتقد أن أكثر ما يعوق تقدم الإنسانية ويعطل البحث العلمي هي الدغماطيقية والتي تعني (التعصب لفكرة معينة الناتج عن توهُّم امتلاك الحقيقة المطلقة) بالإضافة إلى التعصب الديني، وبالرغم من كل هذا

رأى بوبر أن نظرية التطور على الرغم من اعتقاده بصحتها لا تتعدى كونها (نظرية غير قابلة للاختبار، ولكنها برنامج بحث ميتافيزيقي). كما رأى أنه (لا يوجد هنالك أي قانون للتطور، هنالك فقط الحقائق التاريخية التي تقول إن النباتات والحيوانات تتغير، أو بتعبير أدق، أنها قد تغيرت).

***

أفكار غير مسبوقة للدين والإله (تلاشى اليقين):

بدأت أفكار مغايرة وغير مسبوقة حول فكرة الإله والدين في الظهور فمن أفكار هنري برجسون صوفية عن حلول الإله في كل تفاصيل الكون إلى وجودية سارتر التي تؤلّه الحرية إلى عبثية الحياة والوجود عند ألبير كامو، وغيرها من الأفكار التي عكست حالة التيه والتشوش التي أصابت العامة، حيث كان مجرد الحديث عن الدين أو الأخلاق أو أي أمر يتعلق بالغيبيات في أي مناقشة بين أبسط العوام معرفة يأخذهم تلقائيًّا إلى تبادُل مثل تلك النوعية من الأسئلة: (هل حقًّا هناك إله؟) (هل هناك سبيل لمعرفة ذلك؟) (ما الهدف والغاية من هذه الحياة؟). فالعلم الآن سواء (من داخل المعمل وما يبدو تحت الميكرسكوب أو ما نشاهده بالتليسكوب في هذا الكون ونحلله فيزيائيًّا) لم يعد في مقدوره أن يلهمنا أي يقين ديني أو موضوعي كما كان يتطلع لذلك العلماء في مطلع القرن العشرين.

-- هنري برجسون (صوفية القرن العشرين):

طرح الفيلسوف الفرنسي الحاصل على جائزة نوبل (هنري برجسون) أفكار عن فكرتي الدين والإله بدت مختلفة عن أبناء عصره حيث أعاد برجسون صياغة الفكرة صوفية حول حلول الإله في الوجود ولكن بشكل جديد، رأى برجسون أن (قوة الخلق) (الإله) يتجلى فينا حين نبدع ونبتكر فهو موجود كماهية نفسية لا رياضية أو منطقية فهو مصدر كل شيء في الوجود ومنبعه، وعنه تصدر العوالم بل إن الخلق ينبع وينبثق من الإله بشكل مختلف، أما عن البُعد الأكثر تصوفًا في الفكرة الإلهية عند برجسون فهو اعتقاده بأننا في التجربة الصوفية ندرك أن الحب الإلهي ليس شيئًا آخر غير الإله، بل هو الإله نفسه الذي استدعى الموجودات إلى الوجود.

أما عن الدين فيرى برجسون أن ظهور فكرة الدين يرجع إلى سببين أساسيين الأول اجتماعي والثاني فردي، أما السبب الاجتماعي فهو ان ابتداع فكرة الدين قد كان (حيلة نوعية) لجأ إليها النوع الإنساني من أجل كبح رغبات الفرد الأنانية التي قد تضرُّ بالجماعة الإنسانية التي يحيا معها، فعن طريق الدين يمكن إقناع الإنسان بالتخلي عن مصلحته الفردية في سبيل المصالح الكبرى التي تتعلق بالجماعة الإنسانية ككل. لأن الإنسان إذا تُرك لذاته خدم رغباته وغرائزه وملذاته، ولو على حساب غيره من البشر، ولم يتحمل أي ألمٍ أو

خسارة أو تضحية في سبيل غيره.

وعليه فقد نشأت من الغريزة النوعية (ملكةً) سماها برغسون ملكة الأساطير أوجدت للإنسان عوضًا عن منافعه ولذاته حين يتركها ويتخلى عنها من أجل منفعة نوعه. حيث أوجدت له عوضًا عن كل ما فعله من خير يُجازى به في حياة أخرى بعد موته.

أما السبب الفردي فهو ما قد يتوصل إليه بعض بني البشر من الأشخاص ذوي الحس والحدس العالي والذكاء الفائق والعبقرية الروحية من إلهامات وكشف تكشفها لنا (قوة الخلق).

حين تتجلى في هؤلاء الأشخاص بتلك الطريقة صوفية التي سبق وذكرناها.

***

سارتر يقود ثوره على كل شيء:

وعلى العكس تمامًا فقد جاء الفيلسوف والروائي الفرنسي جان بول سارتر ليعبر عن توجُّه جيل كامل من الشباب رافض وناقم على كل شيء، حيث صعد نجم فلسفته الوجودية التي تؤلّه الحرية وترى فيها أي (الحرية) الهدف والمسعى الأسمى للبشرية، وفي سبيل ذلك فإنه حتى إذا كان الله موجودًا، فإنه من الضروري رفضه لأن هذا الإله ينكر علينا حريتنا، كما رأى أن نشأة الفكرة الإلهية لم تكن بالأساس

إلا تعبير عن رفض الإنسان لعدم وجود معنى مطلق للكون فما الله إلا نتاج سعي الإنسان لإيجاد معنى وهدف لحياته.

***

ألبير كامو (خرافة معنى الحياة):

رأى الفيلسوف الفرنسي الجزائري ألبير كامو هو الآخر أن أي فلسفة تحاول أن تجد معنى لحياة الإنسان سواء كانت مبنية على فكرة (الإله) أو على فكرة (الإنسان المُؤلَّه الأعلى السوبر مان) هي مجرد وهم وخداع ولكن ونحن نستغني عن تلك الأفكار الواهمة لا بد أن ندرك ونفهم أن هذا الاستغناء لن يأتِ معه بأي تحرُّر كما اعتقد سارتر، بل إنه سيحتاج منا أن نتحلى بالشجاعة الكافية التي تمكننا من أن نواجه حالة من اليأس لن تنتهي حيث لم ولن يعود هناك أي منطق نستطيع من خلاله أن نُفسِّر نضالنا لمآسي تلك الحياة وآلامها.

***

مايكل بولياني (الإيمان العلمي):

أصر الفيلسوف والكيميائي مايكل بولياني على أن المعرفة والعلم لم يحصل الإنسان عليهما فقط عن طريق التعلم والتجربة فقط، فثم بعد إلهامي في النفس البشرية أضاف إلى معارفنا الكثير بشكل غير

واعٍ أو مفسر، رأى أن فكرة المعرفة أعقد أو أصعب بكثير مما نظن رأى أن العلماء كي يتمكنوا من تحقيق اكتشافات عملية عليهم أن يتبنوا الكثير من الأفكار الخيالية النظرية بل ربما عليهم أن يفترضوا خطأ الكثير من الفرضيات العلمية المستقر على صحتها أنه شيء يشبه (الإيمان) إلى حدٍّ كبير، فلولا إيمان الفيزيائيين بنسبية أينشتاين التي لم تثبت إلا بعد سنوات طويلة من كشفه للنظرية لما كان للعلم أن يتوصل للعديد من الاكتشافات والحقائق التي بنيت على افتراض صحة النظرية طوال تلك الفترة، هذا الإيمان بالفكرة عبر عنه أينشتاين ذاته عندما سُئل عما سيحدث إذا لم يثبت صحة نظريته معمليًا حيث ردَّ قائلًا: (سيكون هذا من سوء حظ التجارب، فالنظرية صحيحة).

***

العالم يصرخ:

تركت تلك الحيرة بصمتها على الحالة النفسية والوعي والسلوك الجمعي للناس ليس فقط في أنحاء أوروبا كافة، ولكن في العالم كله، حيث شهدت حقبة الستينيات من القرن العشرين ثورة غير مسبوقة على كل ما هو تقليدي ومستقر في ذهن الإنسانية فمثلًا في أوروبا توقفت أعداد غير مسبوقة عن الذهاب للكنائس، كما بدأت محاولات

جادة لتقنين أوضاع الشذوذ وحرية ممارسة الجنس ونشطت حركات نسائية مطالبة بالمساواة بين الجنسين وعدم فرض أي قيود على الطلاق والإجهاض، لم تعد أفكارًا مثل (الروح والجسد) (المادة والعقل) أمورًا تشغل اهتمام الشباب وفكرهم الذين عبروا عن تذمرهم على كل ما هو معتاد.. تغيرت أشكال الموسيقى وأنماط الموضة وحتى قصات الشعر... صرخ الشباب في الشوارع في تظاهرات معلنين رغبتهم في الحياة وكراهيتهم للحرب، ظهرت حركات تحاول أن تملأ حاجة النفس لأي بعد روحاني كعبادة الشيطان أو الوقوع تحت تأثير المخدرات أو اليوجا أو أي شيء يعطي الحياة بُعدًا غير مادي.. كان هناك رفض عنيف لأي سلطة أو سطوة على السلوك، فاختلال التوازن واضطراب الأفكار أمر يجلب المتعة، فيما غدا القضاء على الكبت هو الغاية والهدف الأسمى.. بدأ عوام الناس يجهرون بإلحادهم دون أي غضاضة، فلم يعد الأمر يحتاج أن تكون فيلسوفًا أو مفكرًا لتعلن إلحادك رأي فلاسفة أمثال أنكونيو نيجري ومايكل هارت أن ما شهده العالم من معارك ووحشية وإبادة في هذا القرن وحده أكبر دليل على أن الحياة لا يحكمها إله أو تحركها قوًى عُليا. بينما زف توماس جيه جيه أليتزر في كتابه (إنجيل الإلحاد المسيحي) بشارة موت الإله وتحررنا من عبودية ذلك الطاغية المستبد.



الملحدون الجدد

الأصولية الدينية



إلا أن حقبة السبعينيات والثمانينيات قد شهدتا ظهور العديد من الحركات والجماعات الأصولية الدينية المتطرفة والتي كان ظهورها ردة فعل لكثير من الأسباب التي كان أهمها العداء والعنف الخطابي الموجه للدين، بالإضافة إلى عوامل أخرى لا مجال لذكرها الآن..

المهم أنه وبعد أن بدا أن شمس الدين على وشك الأفول عن إرجاء المعمورة ظهرت حركات أصولية شديدة التمسك بالدين ولا ترضى إلا بتصدره مشاهد الحياة كافة.. انتفض الأصوليون في كل مكان وكأنهم يقاتلون في معركتهم الأخيرة من أجل بقاء الدين أو ربما كانت صرخة مدوية ضد من يطالبون بالقضاء على الدين حتى من أبناء دينهم نفسه من اللبراليين والعلمانيين والملحدين، وبقدر ما يزداد الهجوم على الدين يزداد تطرفهم وعنفهم.. تصاعد ظهور الأصوليون في كل مكان، أصوليون (شيعة) مسلمون في إيران أصوليون يهود في

إسرائيل، (سنة) مسلمون في مصر، ومنظمة (أر أس أس) الهندوسية في الهند، بالإضافة إلى الحركات البروتستانتينية المتطرفة في الولايات المتحدة الأمريكية. وغيرهم الكثير.

***

الملحدون الجدد:

لكن ما كان أكثر من هذا إدهاشًا هو ظهور تيار فكري إلحادي يستخدم نفس أسلوب الجماعات الدينية الأصولية وطريقتهم من الممكن أن نطلق عليه (الإلحاد الأصولي) مثل هذا التيار مجموعة من العلماء والمفكرين الذين كانت تتملكهم فكرة أنهم قادرون على الوصول للحقيقة المطلقة من خلال العلم فقط، حيث أصبح لديهم خطاب يملؤه اليقين، مثل ما للدينيين الأصوليين من خطاب إيماني يملؤه اليقين بأن كل ما لديهم من أفكار دينية هي حقائق لا تقبل النقاش، استخدم هؤلاء العلماء نفس الطريقة والأسلوب الذي طالما عاب العلمانيون على الدينيين استخدامهما.

حيث وجه هذا التيار الذي صار رواده يعرفون (بالملحدين الجدد) خطابًا يحمل الكثير من أحادية الرؤية والاستئثار بالمعرفة والعلم وتجهيل الآخر وادعاء التوصل إلى فهم الحقائق النهائية حول الحياة والكون التي طالما شغلت عقل الإنسان. فالآن وبجلاء ووضوح تام لن

يعود مقبولًا الحديث عن مخطط وخالق ذكي يسير الكون ويدبر الحياة، فالإلحاد نتيجة حتمية لا بد إلا يتبني العقل سواها. إن الإنسان في عصر العلم الآن لا يعقل أن يتمسك بحقائق العلم وخرفات الدين معًا. إن هذا لن ينمَّ إلا عن الحماقة. إلا أن هذا لا يعني أن هذا التيار الفكري قد استغرق فيه كل الملاحدة في عصرنا الحالي، فقد كان هناك تيار إلحادي أكثر اعتدالًا مَّثله عدد من العلماء والمفكرين ككارل ساجان وستيفن وتينبرج وسنيفن جاي جولد.

***

ريتشارد دوكينز (نبي الإلحاد):

من الممكن القول إن عالم الأحياء بجامعة أكسفورد (ريتشارد دوكيتر) يعد المؤسس والمبشر الأول لهذا الاتجاه الأصولي الإلحادي حيث حمل دوكيتر على عاتقه مشعل الدعوى لهذا الاتجاه الفكري المتعصب من خلال طرحه لمجموعة من الكتب والأفلام التوثيقية ونشاط لا يتوقف لعقد المحاضرات والندوات.

يرى دوكيتر أن الانتخاب الطبيعي الذي لا يعدو كونه عملية تخلو من أي منطق أو هدف هي التي أوجدت الحياة بكل ما نرى فيها من تعقيدات، بدون الحاجة إلى مخطط ذكي تمهل وتدبر قبل أن يوجد الكون والحياة. وأن الوازع الديني ما هو الا خطأ أملاه التطور. كما

أن الكتاب المقدس إذا كان حقًّا ووحيًا من عند إله فلا بد أن يحوي بين طياته حقائق علمية تبرهن على صحة هذا الزعم.

ولا ينسى دوكينز أن يذكر كباقي المفكرين الملحدين أن الدين هو أصل كل الشرور وسبب كل كارثة ومصيبة شهدها العالم.

كما يفسر دوكينز الأخلاق على أنها لا تتعدى كونها طفرة وراثية برمجت أسلافنا على حب الخير للغير والإيثار والسخاء في العطاء والتعاون. وهو ما يثبته سلوك أجدادنا القويم التي ربما ساهمت بشكل أو بآخر في بقاء واستمرار الإنسان، لذا فالأمر لا يتعلق بأي إلهام أو وحي سماوي ولا يحتاج إليه.

ولم تكن تلك المصادفة التي أنتجت طفرة وراثية وارتقت بسلوك أسلافنا هي الوحيدة من نوعها بل تبعها سلسلة من الطفرات التي أخذت ترتقي بسلوك الإنسان وتضيف إليه عددًا من القيم كالجود والإحسان والسخاء والإحساس بالغير والشفقة والحنان.

كما يرى دوكينز أن من أكبر المشكلات التي تحول دون تيقن الكثير من العوام بأن الإلحاد حقيقة لا مفر منها هو أن الكثير من ظواهر الكون والحياة (تخدعنا) حيث تبدو، وكأنها مصممة بدقة وذكاء من ثم تغرى الكثيرين بالقول بأن وراءها إلهًا فيضيعون أعمارهم فيما لا طائل من ورائه. كما أننا إذا كنا لا نمتلك القدرة على إثبات وجود ذلك الإله بطريقة علمية أو نفيه، فما الطائل من

وراء البحث عنه؟

-- (إذا كنا نعتبر أن مرض الإيدز وجنون البقر من الأخطار التي تهدد البشرية، فإن الإيمان بإله هو أحد أكبر الأمراض والشرور في العالم، بل يفوق الجدري الذي تم القضاء عليه، إن الإيمان هو رذيلة كل دين، فهو اعتقاد لا يقف وراءه دليل).

***

(دانيل دينيت):

(لا أتجاوز الحقيقة إذا اعتبرت أن من لا يؤمن بالداروينية إما جاهل أو غبي أو مجنون أو شرير مؤذٍ). دانيل دينيت

– خلال المشوار الفكري للفيلسوف الأمريكي دانيل دينيت لطالما كان كتابيه (فكرة داروين الخطيرة) و(أبطال السحر) أهم محطتين في تاريخه الكتابي وأكثرهما إثارة للجدل لكاتب نظر إليه الإعلام دومًا على أنه واحد من أهم أقلام الملحدين الجدد.

رأى دينيت (إن عالم الأحياء بكل ما فيه من جمال وعجائب وما يبدو عليه من تصميم دقيق ومدهش بارع ليس مخلوقًا أو مصممًا عن طريق إله أو أي شيء شبيه بالإله، لكنه كان نتاج انتخاب طبيعي قام بغربلة طفرات وراثية عشوائية، إنه عملية ميكانيكية لا واعية أنتجت من الفوضى هذا الانسجام دون معاونة من أي عقل) وعلى هذا فإنه

يجب علينا أن نعيد النظر في كل الأفكار الطفولية والبدائية التي شكلت نظرتنا النهائية تجاه الحياة لإن إعادة إعمال العقل تلك ستقودنا في النهاية إلى إدراك أنه ليس هناك إله.

وأن تلك الفكرة مع مرور الوقت هي التي سوف تسود وتبقى حيث البقاء للأصلح، بينما تنقرض المفاهيم الدينية. كما أن فكرة الإيجاد بدون الحاجة إلى عقل تنطبق أيضًا على منظومتنا الأخلاقية وأحاسيسنا الدينية وإبداعاتنا الفنية، واهتماماتنا العلمية. لأن نشأت العقل والذكاء قد كانت تالية لنشأة الكون، ولم يسبقاه قط.

كما أن الأدلة التقليدية على الألوهية كدليل الحدوث والتصميم الذكي وغيرها ليست كافية لإثبات وجود إله خالق لهذا الكون.

***

لورنس كراوس (اللاشيء أوجد كل شيء):

لا شك أن لورانس كراوس يعد واحدًا من أكثر الملحدين الجدد شهرة في الولايات المتحدة الأمريكية، كما أنه يعتبر من أنشط الفيزيائيين وأكثرهم نشرًا للأبحاث، حيث نشر لورنس ما يقرُب من 800 بحث علمي، وثمانية كتب التي يعد أشهرها كتابه (كون من لا شيء).

كما أنه من الممكن القول إن لورنس يعد من أكثر من تناولوا فكرة بداية الكون بالدراسة والبحث سواء من الناحية العلمية أو الفلسفية.

بنى لورنس أفكاره العلمية واستنتاجاته الفلسفية على فكرة واحدة مفادها (أن اللاشيء قد أوجد كل شيء) لكن مفهوم اللاشيء عنده لا يعني العدم وإنما قصد به مفهومًا خاصًّا به. ربما لم يحالف لورنس التوفيق في اختياره هذه اللفظة ليعبر بها بشكل علمي دقيق عمَّا يقصده، وهذا ما ذهب إليه بعض منتقديه حتى من الملاحدة أو ربما إنه اختار لفظته تلك عن عمدٍ مُتوقِّعا ما قد تُثيره من ردود أفعال تلفت الانتباه تجاه فكرته أكثر وأكثر.

رأى لورنس أنه ابتداءً من الفضاء الموجود داخل البروتون وصولًا إلى ذلك الفضاء الخالي الموجود بين المجرات بدون أي جُسيمات أو إشعاع موجود فيه حيث لا يكون هناك شيء، إن هذا الفضاء الخالي وهو ما أطلق عليه (اللاشيء) هو الذي أتى بهذا الكون وأوجده بدون الحاجة إلى وجود (إله). فهذا الفضاء الخالي (اللاشيء) يعج بالجسيمات الافتراضية التي تظهر وتختفي من الوجود في فترات زمنية غاية في الصغر لدرجة لا تمكننا من مشاهدتها. إلا أننا نستطيع قياس آثارها بشكل غير مباشر على الكون.

وبناء على ذلك فقد رأى لورنس أن افتراض كون مسطح طاقته الكلية تساوي صفرًا وفضاء خالٍ يمثل أغلب كتلة الكون ويشتمل على 70% من حجم طاقته كفيل بتفسير وجود هذا الكون من اللاشيء دون حاجة إلى إله.

***

سام هاريس:

يعد سام هاريس طبيب المخ والأعصاب الأمريكي واحدًا من فرسان هذا التيار الإلحادي الجديد. وأبرزهم من الناحية الإعلامية، وبالرغم من أننا لا يمكننا القول إن هاريس قد جاء بأفكار فلسفية أو آراء علمية جديدة تدعم فكرة الإلحاد فإن نشاطه الإعلامي المُكثف بالإضافة إلى تأليفه لعدد من الكتب التي من أشهرها كتابيه (نهاية الإيمان) و(خطاب إلى أمة مسيحية). كل ذلك قد ساهم في بزوغ نجم هاريس كواحدٍ من أهم أعلام الملحدين الجُدد.

تتمحور آراء هاريس وأفكاره حول مجموعة من النقاط التي طالما أثارها عدد من المفكرين سابقين له.. حيث تبنى هاريس فكرة أن الدين هو أصل الشرور وسبب المعاناة البشرية والحروب والإرهاب والتطرف الذي يشهده العالم. فالدين بكل أفكاره المعوقة يأخذنا إلى الماضي، ويحاول أن يعوق العلم الذي يسعى لدفع الإنسان دائمًا نحو

مستقبل أفضل.

كما يرى أن التسامُح الذي تظهره المجتمعات المتحضرة تجاه الأديان هو الذي يسمح بوجود مساحة وبيئة خصبة لنشأة التديُّن المعتدل الذي دائمًا ما يلبث أن يفرز سمومه مولدًا عنه أسوأ أنواع التطرُّف.

كما هاجم هاريس الإسلام والمسلمين بشدة، ورأى أن الادعاء بأن الإسلام دين يدعو إلى السلام هو أكبر كذبة. وبالمثل فالمسيحيون أيضًا لو قرؤوا كتابهم المقدس بعقول منتبهة فلن يقبلوا أكثر ما فيه. كما سخر من فكرة الروح والمادة، إذ كيف يعقل أن يخلق الإله الإنسان الأول من كومة من القاذورات ونفس إلهي منه.

***

فيكتور ستينجر:

تعتبر كتابات الفيزيائي الأمريكي فيكتور جون شتينجر واحدة من أهم مصادر الفكر الإلحادي الجديد من خلال كتاباته ذات الأسلوب المبسط خاصة في شرح العلوم وتحليلها مُستنتجًا من شروحه تلك عدم حاجة الوجود لخالق حتى يكون بالصورة التي هو عليها الآن.

تضمن كتابه الأكثر مباشرة في مناقشته للفكرة الإلهية (الإله: الفرضية الفاشلة) العديد من الأفكار التي رأى أنها كافية لدحض فكرة

وجود إله خالق لهذا الكون. حيث رأى ستينجر أن وجود ذلك الإله كان يستوجب أن تكون بنية الكون والحياة قد تمت من خلال عمليات طبيعية وبسيطة، فظهور الكون والحياة بكل ما يحمله من تلك التعقيدات المحكمة لا يدلل على وجود إله ذكي وخارق قادر على إيجاد مثل هذا الكون بمنتهى السهولة، ولكنه يظهر من خلال تعقيداته تلك أنه قد وُجِدَ بلا تخطيط مسبق أو ذكاء فاعل وهو ما يعتبره ردًّا على فكرة التصميم الذكي.

كما يرى أن العلم التجريبي إلى الآن لا يتوافق مع أهم فرضيات الدين وهي (الروح) أو ما فوق المادة فكل التجارب العقلية والعاطفية للإنسان تتم من خلال عمليات جسدية بحتة، كما أنه لا يوجد دليل واحد على فكرة الحياة بعد الموت (البعث).

وكذلك فإن فكرة المعجزات الخارقة التي تتحدث عنها الكتب المقدسة أثبتت الدلائل المادية والعلمية أنها لم تحدث، وبالمثل فإنه لا يوجد أي دليل تجريبي واحد على اتصال ذلك الإله بالبشر عن طريق (الوحي). كما أن العلم لا يتوافق مع فكرة أن الكون قد خُلق من أجل الإنسان، فالكون ليس مناسبًا بما فيه الكفاية لحياة الإنسان.

***

ستيفن هوكينج:

لا شك أن العالم الفيزيائي الشهير ستيفن هوكينج بتحديه لهذا المرض الشديد الذي أصابه أصبح نموذجًا وقدوة ورمزًا رائعًا للإرادة الإنسانية في مواجهة تحديات الحياة ومعوقاتها. حيث استطاع أن يحفر اسمه وسط قامات الفيزياء وعظمائها.

أما عن أفكار ستيفن هوكينج وآرائه الفلسفية فمن الممكن القول إن أفكار هوكينج قد شهدت تحوُّلًا كبيرًا يمكن ملاحظته من خلال مراجعة كتابيه (تاريخ موجز للزمن) وكتابه التالي (التصميم العظيم) حيث هدم هوكينج في كتابه الثاني كل القواعد والأفكار التي رسخ لها في كتابه (تاريخ موجز للزمن)، بل إن بعض منتقديه قد اعتبروا أنه خالف ربما عن عمد أبسط بديهيات التفكير العلمي ومنطقياته وهو يبني آراءه الجديدة.

ففي كتابه الأول (تاريخ موجز للزمن) أكد (أن توصل العلم لقوانين الفيزياء لا يعني أن هذه القوانين هي التي أنشأت الكون) (إذا اكتشفنا النظرية الجامعة لقوى الفيزياء سنكون قد حققنا انتصارًا كبيرًا للعقل البشري، وعندها سنكون قد فهمنا عقل الإله). كانت أفكار هوكينج تلك مبنية بالأساس على نفس النهج الذي اتبعه إسحاق نيوتن وهو عدم الخلط بين (السبب الأول) (الخالق) وبين

(الآلية التي يعمل بها الكون) (قوانين الطبيعة)، فاكتشاف أجزاء السيارة ومعرفة كيف تعمل لا يعني أنه ليس هناك شخص قد اخترعها، كما أنه ليس من المنطق أن نبحث عن ذلك المخترع داخل أجزائها ومكوناتها. لذا فقد سجل نيوتن في كتابه الشهير (قواعد الرياضيات) بعد توصله لقانون الجاذبية (أتمنى أن يقنع هذا الكتاب الإنسان المفكر بالإيمان بالله).

إلا أن هوكينج في كتابه (التصميم العظيم) نقدَ ذلك كله وأعلن (لأن هناك قانونًا كقانون الجاذبية فقد خلق الكون نفسه من عدم) (لم يعد هناك مجالًا للقول بوجود إله). وهو ما جعل المتدينين يوجهون نقدًا قاسيًّا لهوكينج حيث اعتبرا أنها سقطة ومغالطة علمية وعقلية كبيرة إذ كيف لشيء لم يوجد بعد أن يكون قادرًا على إيجاد ذاته.

كما افترض هوكينج أيضًا أن التوصل لنظرية التوحيد الكبرى التي تجمع قوى الطبيعة الأربع الكبرى في معادلات رياضية مشتركة كفيل بتفسير ما في الكون من دقة متناهية. وهو قول مناقض لما ذكره في كتابه الأول، وهو ما جعل المتدينين يستنكرون عليه ذلك كما احتجوا عليه بما قاله ألان سانداج الملقب بأبي الفلك (أرى استحالة أن يأتي هذا النظام من الفوضى. لا بد من منظم. إن الإله بالنسبة لي شديد الغموض، لكنه التفسير الوحيد لمعجزة الوجود بشقيها: لماذا هناك شيء بدلًا من لا شيء؟ ولماذا هذا الانتظام المذهش؟.

على كُلٍّ فقد سعد ريتشارد دوكينز بذلك التحوُّل الفكري لستيفن هوكينج حيث صرح: (إذا كان داروين قد ألقى بالإله بعيدًا عن علم البيولوجيا فقد ظلَّ له موضعًا في الفيزياء حتى أخرجه منها ستيفن هوكينج).

***

كريستوفر هتشنز (الإله ليس عظيمًا):

برأيي أن المفكر والصحفي البريطاني الأمريكي كريستوفر هتشز قد كان لأسلوبه الساخر والمتهكم على الأديان والفكرة الإلهية سطوة على ما قدمه من أدلة وحجج تدعم أفكاره الرافضة لفكرتي الدين والإله.

رأى هتشز أن من يدعي الإيمان بإله فهو لا يزال في سن الرضاعة من عمر نوعنا البشري، وأن العنصرية والخرافات (الدين) هي أبشع صور الغباء. فالدين يعد تكريسًا لكل ما هو غير منطقي أو غير محتمل، وأنه لا يفرز إلا الجهل والتعصب والقبلية والإرهاب والحروب. بل إن أسوأ ما يفعله الدين فينا هو أنه يجعلنا مقتنعين بأننا نمتلك مسبقًا كل الحقائق التي نحتاج إلى معرفتها.

كان من أكثر كتب هتشز نجاحًا كتابه (الإله ليس عظيمًا) وهي كلمات أراد بها التهكم على مقولة المسلمين (الله أكبر) حيث هاجم

الإسلام ورآه تكريسًا للإرهاب والتطرف، وأن المسلمين موهمون بنظرية المؤامرة، فهم دائمًا ما يحملون الغرب مسؤولية مآسيهم وكوارثهم التي هي بالأساس ناتجة عن طريقة التفكير والحياة النابعة عن الدين والقرآن الذي لا يحوي إلا أساطير التوراة والإنجيل فضلًا عمًّا يمتلأ به من تناقضات وأفكار وحشية بربرية متطرفة.

***

أنطوني كليفورد جريلينج:

ألحق البعض بتلك المجموعة الفيلسوف البريطاني الشهير أنطوني كليفورد جريلينج الذي عمل سنوات أستاذًا للفلسفة في كلية بيركبيك حتى عام 2011 ثم تركها ليؤسس بعد ذلك الكلية الجديدة للعلوم الإنسانية في لندن، ويصبح أول عميد لها، ألفَّ جريلينج ما يقرب من 30 كتابًا حول فلسفة الوجود والدين والإله التي من أشهرها (دحض الشك، مستقبل القيم الأخلاقية، معنى الأشياء حجة الله). يرى جريلينج أن المؤمنين بما لديهم من خلفية أحادية الأفق يحاولون أن يفرضوا على المجتمع أفكارهم الدينية التي تقوض من حرية الإنسان وتحرره، فالأديان تشغل نطاقًا أكبر بكثير من الذي يفترض لها أن تتحيز فيه وهو ما يعوق تطبيق أفكار كثيرة في مجتمعاتنا كحرية الإجهاض والبحوث العلمية على الخلايا الجذعية، وتدريس نظرية

التطور في المدارس. رأى أن الأخلاق في عصر العلم التجريبي لا بد أيضًا أن تكون تجريبية ونابعة من التجربة الشخصية لكل إنسان بحيث يدرك بنفسه ما هو الخير وما هو الشر. كما رأى أن دراسة الكون تؤكد أن تفسير وجوده لا يحتاج إلى أي قوة خارقة أو مفاهيم ميتافيزقية.

***

أنصار التصميم الذكي:

وفي الوقت الذي يقف فيه ريتشارد دوكينز، ومن معه من مؤيدي هذا الاتجاه الإلحادي المتشدد موقفًا يحمل الكثير من اليقين تجاه مجموعة من الأفكار باتت لديهم كثوابت الدين التي لا يجحدها عاقل، ولا ينكرها إلا جاهل رجعي.

كان الكثير من العلماء يتبنون موقفًا مُغايرًا تمامًا حيث رأى بعض العلماء والمفكرين أن الاكتشافات العلمية الجديدة تعكس تعقيدًا بالغ الدقة لا يمكن أن يكون قد أوجدته المصادفة أو العشوائية فاكتشاف أجزاء الخلية في خمسينيات القرن العشرين ثم اكتشاف الدانا بالميكرسكوب الإلكتروني بالإضافة إلى ما تفتحه نظرية الانفجار الكبير من آفاق علمية في مجال الفيزياء الكونية وصولًا إلى البنية المعقدة للذّرة، كل ذلك يوضح سطحية الأفكار المتعلقة بالعشوائية

وسذاجتها، والمصادفة وعدم الحاجة إلى صانع ذكي موجد للكون والحياة. تبنَّى هؤلاء فكرة التصميم الذكي التي ترى استحالة وجود الكون والحياة بما يحتويان عليه من تعقيدات متخصصة و تعقيدات غير قابلة للاختزال بدون عقل ووعي صنعهما بمنتهى العناية حيث إن الأنظمة البيولوجية للكائنات الحية مُعقدة بدرجة لا يمكن أن تنتجها العشوائية، بالإضافة إلى التوافق الدقيق للكون الذي قد صقل بعنايه فائقة، ولولاه لاستحال وجود حياة على الأرض كما رأى هؤلاء أن افتراض وجود هذا الكون من خلال العشوائية والمصادفة لا يقل سذاجة عن أن يفترض علماء الآثار عند اكتشافهم لتمثال في الصحراء أن العوامل المناخية مثل الأمطار والرياح هي التي قامت بنحته وتشكيله بتلك الصورة.

وفي عام **1989** أصدرَ برسيفال ديفيس ودين كينون كتابهما (من الباندا والناس: المسألة الرئيسية بخصوص الأصل البيولوجي) الذي تحدث عن فكرة التصميم الذكي ووجَّه نقدًا وحججًا جدلية قويةً لنظرية التطور العشوائي. ويعتبر هذا الكتاب هو أول كتاب يستعمل عبارات مثل (التصميم الذكي) و(نظرية التصميم) و(أنصار التصميم).

وفي عام **1990** أنشأ معهد دسكفري من قبل مجموعة من العلماء والمفكرين المؤيدين لفكرة (التصميم الذكي) الذين هدفوا من إنشائه

إلى مجابهة نظرية التطور العشوائي والتكريس لفكرة التصميم الذكي.

وفي عام **1991** نشر فيليب جونسون أستاذ القانون بجامعة بيركلي وأحد مؤسسي معهد دسكفري كتابه الشهير (محاكمة داروين) والذي صاغ فيه وبأسلوب سهل مجموعة من الحجج والبراهين التي رأى أنها تدحض نظرية التطور العشوائي وتجعل من فكرة التصميم الذكي ضرورة.

كما طرح عالم الكمياء الحيوية (مايكل بيهي) كتابه (صندوق داروين الأسود) الذي سعى من خلاله إلى توضيح كيف أن النظام البيولوجي (نظام فريد مُكوَّن من العديد من الأجزاء المتفاعلة المترابطة مع بعضها بشكلٍ جيد والتي تساهم في الوظيفة الأساسية للنظام، بحيث إن إزالة أي جزء من هذه الأجزاء سيؤدي إلى توقف النظام عن العمل).

كما احتجَّ بمقولة داروين ذاته في كتابه أصل الأنواع التي قال فيها (إذا ثبت عدم توافُر التغييرات البسيطة المتوالية بكثرة على عضو بيولوجي فإن نظريتي تتحطم قطعًا). حيث رأى بيهي بأن هناك بالفعل أنظمة معقدة مكونة من أجزاء مترابطة بحيث لا يمكن توقُّع إنشائها تدريجيًا وعبر خطوات بسيطة. لذا فالحياة قد وُجدت عبر مخطط ذكي وليس كما يرى دوكينز وأعوانه. كما أكَّد بيهي في كتابه (حدود التطور) أنه قد لاحظ من خلال تجاربه أن التغيرات التي أحدثتها

الطفرات العشوائية في الكائنات لم تكون تطوريه بل كانت انتكاسية.

أما عالم الكيمياء الفيزيائية (تشارلز تاكستون) فقد رأى أن الجينيوم البشري مكوّن بطرقه غاية في التعقيد كما أن المعلومات التي يحويها مخصصة بدرجة يستحيل معها ألا يوجد مصمم ذكي قد قام بذلك.

فيما طرح عالم البيولوجيا الجزئية (فرانسز كولتر) كتابه (لغة الإله) نتائج عمله كرئيس لمشروع الجينيوم البشري الذي أكد من خلاله إيمانه بوجود إله خالق للحياة وموجه لعملية التطوُّر.

كما أكد أستاذ البيولوجيا في السربون ورئيس الأكاديمية الفرنسية للعلوم (بير جراسيه) من خلال تجاربه على آلاف الأجيال من ذبابة الفاكهة (الدوسوفيلا) أنه لم يستطع الحصول على أي طفرة مفيدة.

فيما أكّد (كيسي لسكين) عبر كتابه (الانتواع الخادع) أن الترويج الذي قام به أنصار التطور العشوائي حول رصد عدة حالات لظهور أنواع جديدة ما هو إلا ادعاءات غير صحيحة على الإطلاق.

في حين ناقش (ستيفن ماير) في كتابه (شك داروين) الذي حقق مبيعات ضخمة كيف أننا لا نستطيع أن نجد أي توافق بين فكرة التطور العشوائي الذي يرى العلماء المناصرين له أنه لا يمكن أن يتم إلا عبر تطور تدريجي بطيء وبين ما حدث في الانفجار الكامبري الذي صاحبه ظهور مجموعة ضخمة من الكائنات.

أما (مايكل دنتون) فقد وضح في كتابه (قدر الطبيعة) كيف أن الثوابت الفيزيائية تصرخ بأن هذا الكون قد أعد بعناية، بينما صرح عالم الفيزياء (بول ديفيز) (ربما ما أقول سيبدو مستغربًا من الجميع لكن العلم طريق يقود إلى الله على نحو أكثر ثباتًا وتحققًا من الدين.

فيما رأى جون لينوكس أستاذ الرياضيات وفلسفة العلوم بجامعة أكسفورد (إن الملاحدة الجُدد ليسوا علميين كما يدعون، بل إنهم إذا اقترب بهم الدليل من الشكّ في المذهب العلمي وترجيح القول بالألوهية تشنجوا، وصاروا لا علميين، بل ضد العلم كأي دوغماطيقي).

ما يُشبه الخاتمة

لا تُرفع جلسة البحث والمداولة في هذا الموضوع، فهي مُنعقدة حتى يلفظ آخر ذي لبٍّ على البسيطة أنفاسه، فالعقل الإنساني لا يتوقف عن البحث والتحقُّق والتوق الى كمال المعرفة، وما دمنا باحثين عن الحقيقة فلا قيود ولا حدود على ما تشتهي العقول التطلع إلى إدراكه خاصة في مبحث كهذا (الفكرة الإلهية وحقيقة الوجود). لأن السعي إلى إدراك حقيقة تلك الفكرة هو محور أساسي ترتكز عليه حياة الإنسان وإدراكه للمعنى والغاية الأصلية من وجوده في هذا العالم؛ لذا فلا نقامر إذا توقعنا أن ما بذل من سعي وبحث حول تلك الفكرة ليس إلا نقطة من بحر يملؤه سعي وتفكر الأجيال القادمة. فالبحث موصول جيلًا بعد جيل.

فلا أتصور إنسانًا على بساطة عقله وقلة معرفته لم يسأل نفسه يومًا هل لهذا الكون حقًا خالق أم أنه هنا وحده في غربة وجودية بلا معين وبدون معنى أو هدف لتلك الحياة؟ وبنفس القدر يحاول ذات الإنسان أن يختبر مدى صلابة معتقداته وسلامتها من أي نقيصة تُعكِّر عليه صفو يقينه فيها، سواء كان ذلك بالعقل أو الضمير أو الشعور أو الحدس... وهو ما يفتح الباب على مصراعيه للتحاوُر والدراسة والتأمُّل ويفترض فينا صدق الرغبة في بلوغ الحقيقة.

لكن علمنا اليوم يعاني ارتفاع أصوات المتطرفين من المؤمنين والملحدين على السواء، ممن يدعون امتلاك الحقيقة المطلقة، وبما لديهم من نظرة أحادية وضيق للأفق يملؤهم اليقين بصحة ما لديهم من المعرفة، ووجوب إيمان العالم من خلفهم بما لديهم من خطاب يُدلِّل على امتلاك السبيل الوحيد لبلوغ الحقيقة والاستئثار بالمعرفة وتجهيل الآخر بدرجة أنه حتى لا يستحق التحاور معه. وهو ما يُظهر تناقُضًا واضحًا بين ما حقّقه الإنسان من تقدُّم علمي وتكنولوجي هائل في مجال الاتصالات والتواصل إضافة إلى أبحاث أو دراسات يصعب إحصاؤنا في مجالات علم النفس والاجتماع والتنمية البشرية تحاول أن تصل بإنسان اليوم إلى أعلى درجات التواصُل والتكيف والتعايش مع الآخر وبين ما نحياه من واقع منافٍ لأبسط معايير التسامح والانفتاح على الآخر.

وأخيرًا أودُّ أن أنوِّهَ إلى أننا الآن ونحن نشاهد السباق في مضمار التقدُّم ولا نشارك فيه لم نعد مستهلكين لما ينتج الغرب من سلع ومنتجات، بل أصبحنا مستهلكين لما ينتجه من أفكار؛ لذا فقد أصبح محتم علينا أن نتفحص التجربة الغربية كما سبق وتفحصتنا الأمم علنا ندرك ما يغنينا منها أو ننقل بروح اللبيب لا المُقلِّد الذي يدرك أن لنا واقعًا مغايرًا وتجربة ثقافية وفكرية مختلفة قد تجعل من تجربة الآخر غير ذات أهميةٍ لنا في بعض المباحث والموضوعات الفكرية.

المــراجــع

(1) الموسوعة الكبرى للمذاهب و الفرق و الاديان . دكتور سليم ألياس . مركز الشرق الاوسط الثقافى للطباعة و النشر والترجمة والتوزيع .

(2) دراسات فى علم اللاهوت النظرى . الراهب بنيامين المحروقى . الكليه الاكليريكيه اللاهوتيه بدير المحرق العامر

(3) موسوعة الاديان الحيه . ر.س.زينر . ترجمة د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ . الهيئه المصريه العامه للكتاب .

(4) اعداء الحوار . مايكل انجلو ياكوبوتشى . ترجمة د. عبدالفتاح حسن . الهيئه المصريه العامه للكتاب .

(5) الله لماذا . كارن ارمسترونج .ترجمة . فاطمة نصر و هبة محمود عارف . الهيئه المصريه العامه للكتاب .

(6) اينشتاين ضد الصدفه . فرانسوا دو كلوسيه . ترجمة عزت عامر . الهيئه المصريه العامه للكتاب .

(7) جون لوك . دكتور عزمى اسلام . الهيئه المصريه العامه للكتاب .

(8) احلام اليقظه . جان جاك روسو . ترجمة ثريا توفيق . الهيئه المصريه العامه للكتاب .

(9) فى اسباب التعصب . دكتور هانى الجزار . الهيئه المصريه العامه للكتاب .

(10) اثر العلم فى المجتمع . برتراند رسل . ترجمة دكتور تمام حسان . الهيئه المصريه العامه للكتاب .

(11) الطاقه الروحيه . هنرى برنجسون . ترجمة دكتور على مقلد . كلمة و مجد المؤسسه الجامعيه للدراسات و النشر والتوزيع

(12) منبعا الاخلاق والدين . هنرى برنجسون . ترجمة سامى الدروبى و عبدالله عبدالدائم . الهيئه المصريه العامه للكتاب .

(13) النبى موسى الانسان و ديانة التوحيد . سيجموند فرويد . ترجمة دكتور عبدالمنعم الحفنى . دار الشعاع للنشر .

(14) البير كامى . حياته و ادبه و فلسفته . دكتور عبدالمنعم الحفنى . دار الشعاع للنشر .

(15) جان بول سارتر : حياته و ادبه و فلسفته . دكتور عبدالمنعم

الحـنى . د ر الشعـاع للنشر

(16) ما فوق مبدأ اللذه . سيجموند فرويد . ترجمة دكتور عبدالمنعم الحفنى . دار الشعاع للنشر .

(17) الحس الدينى . لويجى جوسانى . ترجمة سناء مدحت فضيل و صبحى نصرى مخول و كميل جميل عيد .

(18) داروين مترددا . ديفيد كوامن . ترجمة دكتور مصطفى فتحى خضر . الهيئه المصريه العامه للكتاب .

(19) خلاصة القرن . كارل بوبر . ترجمة الزواوى بغوره و خضر مذبوح . الهيئه المصريه العامه للكتاب .

(20) الصدام داخل الحضارات . ديتر سنغاس . ترجمة شوقى جلال. الهيئه المصريه العامه للكتاب .

(21) خرافة الالحاد . دكتور عمرو شريف . مكتبة الشروق الدوليه.

(22) اعظم استعراض فوق الارض (ادلة التطور) . تشارلز دوكنز . ترجمة مصطفى ابراهيم فهمى .

(23) الوجوديه مذهب انسانى . سارتر . ترجمة دكتور عبدالمنعم

الحفنى . دار الشعاع للنشر .

(24) تفسير الاحلام . سيجموند فرويد . ترجمة دكتور عبدالمنعم الحفنى . دار الشعاع للنشر .

(25) رحلة عقل . دكتور عمرو شريف . مكتبة الشروق الدوليه .

(26) قضية المرأة . دكتور عبدالوهاب المسيرى . دار نهضة مصر للطبعة و النشر و التوزيع .

(27) رأس المال . كارل ماركس . ترجمة الدكتور عبدالمنعم الحفنى . دار الشعاع للنشر .

(28) الماركسيه و الوجوديه . سارتر . ترجمة الدكتور عبدالمنعم الحفنى . دار الشعاع للنشر (29) قصة الحضاره ، ول وايريل ديورانت ، ترجمة د. زكى نجيب محمود دار الجيل للطبع و النشر و التوزيع .

(30) صندوق داروون الاسود (تحدى الكمياء لنظرية داروون) ، مايكل بيهى ، ترجمة د . مؤمن الحسن ، د. اسامة ابراهيم ، د . زيد الهبرى و اخرون . دار الكاتب للنشر و التوزيع .

(31) نشأة داروين ، د. ستيفن ماير ، ترجمة . موسى ادريس ، د . مؤمن الحسن و اخرون ، دار الكاتب للنشر و التوزيع .

(32) تصميم الحياه ، د. ويليام ديمبسكى ، د . جوناثان و يلز ، ترجمة د. مؤمن الحسن ، د . محمد القاضى ، د . موسى ادريس . دار الكاتب للنشر و التوزيع .

(33) الانتواع الخادع ، كيسى ليسكن ، ترجمة د . اسلام المجذوب . د . محمد القاضى ، دار الكاتب للنشر و التوزيع .

(34) رسالة فى اللاهوت و السياسة ، سبينوزا ، ترجمة د. حسن حفنى ، دار التنوير للنشر و التوزيع .

(35) سبينوزا و اللاهوت ، د . منذر شبانى ، منشورات وزارة الثقافه ، الهيئه العامه السوريه للكتاب .

(37) ورسو (مقدمه قصيرة جدا) ، تأليف روبرت ووكلر ، ترجمة فايقه جرجس حنا ، مؤسسة هنداوى للتعليم و الثقافه .

(38) جون لوك (مقدمة قصيرة جدا) ، تأليف جون دن ، ترجمة فايقه جرجس حنا ، مؤسسة هنداوى للتعليم و الثقافه .

(39) فى فن الحكم ، جون لوك ، ترجمة ماجد فخرى ، اللجنه الدولية لترجمة الروائع .

(40) نقد العقل المحض ، امانويل كنت ، ترجمة غانم هنا ، المنظمة العربيه للترجمة

(41) ظاهريات الروح ، هيجل ، ترجمة مصطفى صفوان ، المنظمة العربيه للترجمة .

(42) المعجم الفلسفى ، مراد وهبه ، الهيئه المصريه العامه للكتاب .

(43) دنس سكوت (جون) ، الموسوعة العربيه ، الموسوعة العربية السوريه ، دمشق

(44) مقدمة قصيرة جدا (عصر النهضه) ، جيرى بروتون ، ترجمة ابراهيم البيلى محروس ، مؤسسة هنداوى للتعليم و الثقافة

(45) ذرية ابراهيم ، تأليف روبن فريد ستون ، ترجمة عبدالغنى بن ابراهيم ، معهد هاريت و روبرت للتفاهم الدولى بين الاديان ، اللجنه اليهوديه الامريكيه

(46) رحلة الى قلب الالحاد ، القمص حلمى يعقوب ، كنيسة القديسين مارمرقس و البابا بطرس ، خاتم الشهداء ، الاسكندرية

(47) روح الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط ، تأليف ايتن جلسون ، ترجمة امام عبدالفتاح امام ، دار دمشق

(48) القديس بونافنتورا بين الفلسفة و علم اللاهوت ، كامل محمد محمد عويضه ، دار الكتب العلميه

(49) الموسوعة الفلسفية ، وضع لجنه من العلماء و الاكاديميين السوفياتيين ، دار الطليعة

(50) ديكارت و العقلانية ، جنفياف روديس لويس ، دار النجاح

(51) العالم او كتاب النور ، ديكارت ، ترجمة اميل خورى ، دار المنتخب العربى للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت

(52) قواعد لتوجيه الفكر ، ديكارت ، ترجمة سعد الله ، دار سراس للنشر ، تونس

(53) بليز بلسكال الرياضى و الفيزيائى و المتفكر فى الله ، دونالد ادمسون ، دار الماجد للنشر و التوزيع

(54) خواطر، بليز بلسكال، ترجمة ادوارالبستانى، اللجنه اللبنانيه لترجمة الروائع ، بيروت

(55) موسوعة اليهود و اليهودية، والصهيونيه، عبد الوهاب المسيرى، دار الشروق

(56) الله ، عباس محمود العقاد ، دار المعارف.

(57) لغز الموت ، مصطفى محمود ، دار المعارف

(58) لغز الحياه ، مصطفى محمود ، دار المعارف

(59) الله ، مصطفى محمود ، دار المعارف

(60) الاعمال الكاملة للامام محمد عبدة،جمع و تقديم محمد عمارة، دار الشروق

الفهرس



قصة الإلحاد

قراءة تاريخية للإلحاد

فلا أتصور إنسانًا على بساطة عقله وقلة معرفته لم يسأل نفسه يومًا هل لهذا الكون حقًا خالق أم أنه هنا وحده في غربة وجودية بلا معين وبدون معنى أو هدف لتلك الحياة؟ وبنفس القدر يحاول ذات الإنسان أن يختبر مدى صلابة معتقداته وسلامتها من أي نقيصة تُعكّر عليه صفو يقينه فيها، سواء كان ذلك بالعقل أو الضمير أو الشعور أو الحدس... وهو ما يفتح الباب على مصراعيه للتحاوُر والدراسة والتأمُّل ويفترض فينا صِدق الرغبة في بلوغ الحقيقة.

لكن علمنا اليوم يعاني ارتفاع أصوات المتطرفين من المؤمنين والملحدين على السواء، ممن يدعون امتلاك الحقيقة المطلقة، وبما لديهم من نظرة أحادية وضيق للأفق يملؤهم اليقين بصحة ما لديهم من المعرفة، ووجوب إيمان العالم من خلفهم بما لديهم من خطاب يُدلّل على امتلاك السبيل الوحيد لبلوغ الحقيقة والاستئثار بالمعرفة وتجهيل الآخر بدرجة أنه حتى لا يستحق التحاور معه.

Cover by #ahz_art


9789774884764



دار اكتب للنشر والتوزيع

12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية – القاهرة – مصر

E-mail : daroktob1@yahoo.com

01144552557